التَّواصُل الإقناعيّ في قصيدة التَّهاني

(لاميَّةٌ للغَزَّاوِيّ نَموذَجًا)

عبد المعين بن حسن بن عبد الحميد بالفاس

أستاذ الأدب الحديث المشارك قسم اللغة العربيَّة وآدابها

كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة الملك عبد العزيز

جدَّة- المملكة العربيَّة السُّعُوديّة

التَّواصُل الإقناعيّ في قصيدة التَّهاني (لاميَّةٌ للغَزَّاوِيّ نَموذَجًا)

عبد المعين بن حسن بن عبد الحميد بالفاس
قسم الأدب الحديث –قسم اللغة العربيَّة وآدابها– كليـــة الآداب والعلـــوم الإنسانية – جامعة الملك عبد العزيز جدَّة– المملكة العربيَّة السُّعُوديّة
البريد الإلكتروني : abalfas@kau.edu.sa

الملخص :
تناقش الدِّراسة لاميَّة الغَزَّاوِيّ (يبشّرُ باسمِ اللهِ في كُلِّ مَوسِمِ) التي تُعدُّ إحدى حوليَّاته الشِّعريَّة في تهنئة الملك عبد العزيز بعيد الأضحى. وتطبق الدِّراسة نظريَّة التَّواصُل الإقناعيّ (Persuasive Communication) لـــميشيل لو نيت (Michel Le Nit) على اللَّاميَّة؛ بوصفها رسالة واضحة ومباشرة، يهدف منها الشَّاعر إلى إقناع المخاطب بدور فضيلة الممدوح الدِّينيَّة في إحياء المجتمع؛ ومن ثمَّ في اعتلاء الممدوح المكانة العليا فيه. وتُفيدُ الدِّراسة، أيضًا، من نظريتي: الفضيلة (The Virtue) لنوراني Yaseen Noorani، والنَّمط الموسميّ (Seasonal Pattern) لجاستر (Theodor Gaster) في مناقشتها لقصيدة التَّهنئة التي تتكرَّر موسميًّا في زمان ومكان محدَّدين أمام مجموعة معيَّنة من المخاطبين؛ لتوضيح دور الفضيلة المستمرّ في استقرار حال المجتمع، وعلاقة استمرار هذه الحال باستمرار مكانة الممدوح العُليا في المجتمع. وتوظف الدِّراسة المنهجين: الموضوعاتيِّ والأسلوبيِّ في معالجتها النَّقديَّة.

الكلمات المفتاحيَّة: الغَزَّاوِيّ ، قصيدة التَّهنئة، الملك عبد العزيز، الفضيلة، التَّواصُل الإقناعيّ، ميشيل لو نيت.

The Persuasive Communication in the Felicitating Ode: (A *lāmiyyah* by Al-Ghazzāwī as a Model)

Abdulmueen Hassan Abdulhameed Balfas
Associate Professor of Modern literature
Department of Arabic Language and literature / Faculty of Arts and Humanities / King Abdulaziz University
Jeddah-Kingdom of Saudi Arabia
Email : abalfas@kau.edu.sa

Abstract

The study discusses Al-Ghazzāwī's *lāmiyyah* (*yubashsheru bismi Allāh fī kulli mawsimi*), which is one of his poetic annals in felicitating King Abdulaziz on □īd al–Adha. The study applies the theory of (Persuasive Communication) by Michel Le Nit to the *lāmiyyah*, which is to be considered as a clear and direct message from which the poet aims to convince the addressee of the role of the *mamdūḥ*s religious virtue in reviving society, and thus in ascending the supreme position in it. The study will also benefit from two theories: (The Virtue) by Yaseen Noorani and (The Seasonal Pattern) of Theodor Gaster in its discussion of the felicitating poem that is repeated seasonally in a specific time and place in front of a specific group of addressees to emphasize the continuing role of virtue in stabilizing the state of society, and the relationship of the continuation of this state to the continuation of the *mamdūḥ*s supreme position in society. The study employs the thematic and stylistic approaches in its critical treatment.

Keywords: Al-Ghazzāwī, Felicitating Ode, King Abdulaziz, Virtue, Persuasive Communication, Michel Le Nit.

•المقدِّمة:

شعر المناسبات، لا سيَّما الدِّينيَّة، الذي يسجِّل بـــه الشَّـــاعر فتـــرات تاريخيَّة ارتبطت بجهود الممدوح لا يعدُّ، دائمًا، من المـــدح التَّكسُّـــبي؛ لأنَّ الجزم بذلك يؤدِّي إلى تجريد القصيدة من أثرها في تشكيل الوعي الجمعيّ، لا سيَّما إذا كان لقصائد المناسبات أثرٌ اجتماعيٌّ وسياسيٌّ مهمّ فـــي تثبيـــت مكانة الممدوح وترويجها.

وكتب الشُّعراء قصائدهم في مناسبات مختلفة منذ العصر الجاهليّ إلى عصرنا الحديث. ومن هذه المناسبات المتكرّرة قصائد التَّهنئة بالعيدين: عيد الفطر، وعيد الأضحى. ونظم الشُّعراء، لا سيَّما مَن اشتهر مـــنهم بعلاقتـــه بالحكَّام كالخلفاء والأمراء، قصائد التَّهنئة بالعيدين التي تعدُّ أحد أبرز مظاهر الاحتفال بالعيد في الثَّقافة العربيَّة الإسلاميّة، والتي تؤدّي دورًا مهمًّـــا فـــي تأكيد مكانة الممدوح في المجتمع ومشروعيَّة حكمه لتصبح ضرورة مميّـــزة للاحتفال بالحكم العربي الإسلاميّ.

ومن أشهر قصائد التَّهنئة بالعيدين، لا سيَّما عيد الأضحى، في العصر الحديث حوليّات الشَّاعر أحمد الغَزَّاوِيّ في تهنئة الملك عبد العزيـــز بعيـــد الأضحى. وتناقش الدِّراسة إحدى هذه الحوليَّات وعَلاقتها بإقناع المخاطـــب بدور الفضيلة في إحياء المجتمع؛ ومن ثم في اعتلاء الفردِ المكانة العُليا فيه.

•فرضية الدِّراسة وأسئلتها:

تفترض الدِّراسة أنَّ الهدف الرَّئيس من لاميَّة الغَزَّاوِيّ في تهنئة الملك عبد العزيز بعيد الأضحى أمام وفود المسلمين في المشاعر المقدَّسة هو إقناع المخاطَب بالمكانة العُليا التي تبوَّأها الملك في المجتمع بسبب فضائله الدِّينيَّة التي أدَّتْ إلى تحول المجتمع إلى حال الاستقرار. وتفتـــرض الدِّراســـة أنَّ الهدف من التَّكرار السَّنويّ الموسميّ لقصائد التَّهنئة بعيد الأضحى هو تأكيد هذه المكانة واستمرارها؛ زيادة في إقناع المخاطَب بالحوليَّـــات؛ بوصـــفها رسائل واضحة، تنشر الوعي بمشكلة اجتماعيَّة، وبطريقة معالجتهـــا. كمـــا تفترض الدِّراسة أنَّ الغَزَّاوِيّ يعزّز التَّكرار السَّنويَّ الموسميَّ لقصائد التَّهنئة

بتكرار آخر موضوعاتيّ أسلوبيّ داخل القصيدة ذاتها؛ لتأكيد الأثر الإيجابيّ لتمسُّك الفرد بالفضيلة الدِّينيَّة على المجتمع؛ ومن ثمَّ مكانته فيه.

ولإثبات الفرضيَّات المتداخلة السَّابقة تناقش الدِّراسة الأسئلة الآتيـــة: لماذا يكرّر الشَّاعر قصائد التَّهنئة بعيد الأضحى سَنويًّا للملك عبد العزيز في مكان وزمان محدَّدين أمام مجموعة محدَّدة من المخاطبين؟ وما علاقة إقناع المخاطَب بمكانة الممدوح بتكرار قصائد التَّهنئة السَّـنويَّة الموســميَّة بعيــد الأضحى من جهة، وبتكرار أقسام القصيدة وموضوعاتها الداخليَّة وأسلوبها من جهة أخرى؟ ما علاقة تأكيد فضيلة الممدوح الدِّينيَّة الفضيلة بأثره فـــي المجتمع ومكانته فيه؟

وتجيب الدِّراسة عن تساؤلات الفرضيَّات السَّـابقة بتطبيــق نظريَّــة التَّواصُل الإقناعيّ (Persuasive Communication) لميشيل لـــو نيـــت (Michel Le Nit) على لاميَّة الغَزَّاوِيّ في تهنئة الملك عبد العزيز (يبشّرُ باسم الله في كل موسم)، لا سيَّما موضوعات قسم المديح الدَّاخليَّة وأسلوبها. وتُفيدُ الدِّراسة في مناقشتها لقصيدة التَّهنئة، أيضًا، من نظريتـــي: الفضـــيلة (The Virtue) لنـــوراني Yaseen Noorani، والـــنَّمط الموســـميّ (Seasonal Pattern) لجاستر (Theodor Gaster)؛ لتأكيد دور فضـــيلة الفرد، لا سيَّما الدِّينيَّة، في تحوُّل المجتمع الإيجابيّ؛ ومن ثمَّ تأكيد أثرها في عُلو مكانة الفرد نفسه في المجتمع. وتُفيدُ الدِّراسة، أيضًا، مـــن المنهجـــين: الموضوعاتيّ والأسلوبيّ في معالجتها النَّقديَّة.

•الغَزَّاوِيّ وحوليَّاته:

ولد أحمد بن إبراهيم الغزاوي. بمكة عـــام ١٣١٨هـــ - ١٩٠٠م، وتعلَّم في مدارسها. عاش في فترتين مختلفتين؛ فشهد عهد الشَّريف حُسين ثم عهد الملك عبد العزيز. وكانت أول قصائده في مدح الملك عبد العزيز عام ١٣٤٥ه - ١٩٢٦م بمناسبة انعقاد المؤتمر الإسلاميّ. واستمرَّ الغَزَّاوِيّ يمدح الملك عبد العزيز، ويحتفي بإنجازاته السّياســيّة والاجتماعيَّــة حتـــى عـــام ١٩٧٣ه، الذي انتقل فيه الملك إلى جوار ربه. ويعدُّ الغَزَّاوِيّ الشَّاعر الأوَّل

لحكّام الدَّولة السُّعُوديّة، لا سيَّما للمؤسِّس الملك عبد العزيز الذي أطلق عليه في عام ١٣٥١هـ لقب (حسَّان الملك عبد العزيز)[١]. واستمرَّت علاقة الشَّاعر الغَزَّاوِيّ بملوك آل سُعُود مادحًا لهم، ومحتفيًا بإنجازاتهم؛ فمدح الملك سُعُود، والملك فيصل، والملك خالد، وغيرهم من أفراد الأسرة، ممن جمعته بهم علاقة صداقة وإخاء إلى أن انتقل إلى جوار ربه عام ١٤٠١هـ-١٩٨١م، مخلفًا وراءه ثروة شعريَّة ونثريَّة ضخمة جمع بعضها بعد وفاته[٢].

يعدُّ الغَزَّاوِيّ من أهمّ رواد الأدب السُّعُوديّ، ورئيس جماعة الغَزَّاوِيّ المحافظة الإحيائيَّة التي تعدُّ مع جماعة الصَّبَّان -صاحبة الرُّؤية التَّجديديَّة- إحدى جماعتين أدبيتين اشتُهرتا في بداية نهضة الأدب السُّعُوديّ. وللغَزاويّ نفس شعريٌّ طويل، كما اشتهر بقصائد المناسبات، والمحافل الرسميَّة التي كان يلقيها أمام الملك عبد العزيز، وضيوفه من رؤساء مختلف الدول العربيَّة والإسلاميّة، لا سيَّما قصائد الحوليَّات في المواسم الدِّينيَّة أمام وفود

١ - من الجدير بالذّكر أنّ لقب (حسَّان الملك عبد العزيز) له دلالة دينية صريحة تلائم القصيدة الحالية؛ فكما أنَّ حسَّان بن ثابت رضي الله عنه يمثل القوة الإعلامية التي تروج للإسلام وتدافع عنه، وعن النبي صلى الله عليه وسلم ضد الجاهلية بقيمها التي تتعارض مع الدين، وبشعرائها الذين يروجون لها فإن الغزاوي يروّج أيضًا لفضيلة الملك عبد العزيز الدينية؛ بوصفها المعيار الرئيس الذي بنى عليه المجتمع.

٢ - للغزاويّ قصائد في القضايا الإقليمية السياسية؛ كقضية فلسطين، والقضايا الوطنية؛ كمديح الجيش، وله أيضًا قصائد في المناسبات الاجتماعية؛ كقصائد افتتاح دور الأيتام والمعاهد العلمية والجمعيات الخيرية، بالإضافة إلى قصائد المسامرات الأدبية وتكريم الصحافة والصحفيين، وغيرها كثير. وله قصائد إخوانية لشخصيات سياسية وأدبية جمعته بهم علاقة الصداقة. وللغزاوي، أيضًا، كتابات نثرية غزيرة نشرت بشكل دوري في الصحف والمجلات؛ كمجلة المنهل. وقد عمل في الصحافة وترأس تحرير صحيفتي أم القرى وصوت الحجاز، بالإضافة إلى رئاسة تحرير مجلة الإصلاح. وشارك في تأسيس أول مجلة في العهد السُّعُوديّ، وهي مجلة الإسلام. وتدرج في الوظائف الحكومية إلى أن أصبح نائبًا لرئيس مجلس الشورى، كما حاز رتبة وزير مفوض من الدرجة الأولى. للاستزادة من أخبار الغزاوي يراجع: الجبوري، كامل، معجم الشعراء من العصر الجاهلي إلى ٢٠٠٢ م، دار الكتب العلمية، لبنان، ٢٠٠٣م، ١/١٠١-١٠٢. العطوي، مسعد عيد، أحمد الغزاوي وآثاره الأدبية، ط١، مسعد عيد العطوي، الرياض، ١٩٨٦م، ٩٩-١٣٩.

المسلمين؛ كقصائد التَّهنئة بعيد الأضحى. قال إبراهيم الفوزان: "وأغلبُ مطوَّلاته ما يلقيها في المواقف الجماعيَّة؛ كالأعياد والحج، وقد اعتاد الشَّعب السُّعُوديّ ووفود الحجاج أن يسمعُوا حوليَّات الحجّ الغزَّاويَّة في كلّ عام"(١).

وللغزاوي في تهنئة الملك عبد العزيز وأولياء عهده بالعيدين حوليات كثيرة، كان أولها في تهنئة الملك عبد العزيز بعيد الأضحى عام ١٣٤٧ه، وآخرها في تهنئة الملك خالد بعيد الأضحى عام ١٣٩٩ه؛ أيْ أنه انتظم في كتابة حوليات التَّهنئة بالعيدين لملوك آل سعود على مدى ٥٣ عامًا. وستناقش الدِّراسة أحدى حوليات الغَزَّاوِيّ في تهنئة الملك عبد العزيز بعيد الأضحى التي امتدت إلى ٢٥ عامًا؛ حيث كان آخرها عام ١٣٧١هـ.

وتختار الدِّراسة حوليات التَّهنئة بعيد الأضحى؛ لأنّها تتناول أعظم حدث سنوي؛ فعيد الأضحى يجمع بين مفهومي: الابتهاج، والاستقرار، ويؤكدهما. والتَّهنئة بالعيد تتضمَّن نجاح موسم الحج الذي يعدّ مقياسًا للاستقرار، كما أن التَّهنئة المتكررة بعيد الأضحى تأكيد للاستقرار وقيمته، وتأكيد لجهود الممدوح في استدامته.

ولمعرفة دور قصيدة التَّهنئة الموسميَّة بعيد الأضحى؛ بوصفها رسالة أدبية يهدف منها الشَّاعر إلى إقناع المخاطب بدور فضيلة الملك عبد العزيز في إحياء المجتمع، وتحوله الإيجابي إلى حال الاستقرار، ودورها أيضًا في تأكيد اعتلاء الممدوح المكانة العليا في المجتمع ستطبق الدِّراسة نظرية التَّواصُل الإقناعيّ (Persuasive Communication) لميشيل لو نيت (Michel Le Nit) على حوليّة من حوليات الغَزَّاوِيّ؛ بوصفها نموذجًا لها جميعًا، وهي قصيدته اللَّاميَّة (يبشّرُ باسمِ اللهِ في كُلِّ مَوسِمِ) التي يهنئ بها الغَزَّاوِيّ الملك عبد العزيز بعيد الأضحى أمام وفود الحجاج من العالم الإسلاميّ في المشاعر المقدسة عام ١٣٥٢هـ؛ أيْ بعد سنة ونصف تقريبًا

١ – الفوزان، إبراهيم بن فوزان، الغزاوي الشاعر، مجلة كلية اللغة العربية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ع٩، ١٩٧٩م، ٤٥١.

من ضمّ الحجاز، وتوحيد البلاد تحت مسمَّى (المملكة العربيَّة السُّعُوديّة) في ٢٢ جمادى الأولى ١٣٥١ه، الموافق ٢٣ سبتمبر ١٩٣٢م.

•نظرية التَّواصُل الإقناعيّ في لاميَّة الغزاوي:

يشير Le Nit إلى أنَّ عملية التَّواصُل الإقناعيّ تمرّ بثلاث مراحل، يعتمد كلٌّ منها على الآخر؛ لتنجح عملية التأثير في المخاطَب، وإقناعه بالرسالة المرسَلة، وهي: نشر الوعي وتعزيزه، والتوجيه ووضع القوانين للوصول إلى الحل، وتكرار الرسالة المرغوب فيها، وتأييدها. وعلى مُرسل الرسالة في المرحلة الأول أن يستخدم لغة مناسبة مدعّمة بدليل منطقي لإقناع المستقبل بالمشكلة؛ أيْ أن الرسالة لا بد أن تكون واضحة، وبلغة سهلة مباشرة متماسكة لا تناقض فيها. ولكي تنجح المرحلة الأولى لا بدَّ من أن تُعزّز بتقديم حلّ إرشاديّ يهدف إلى جعل المخاطَب يقبل الرِّسالة. وفي الخطوة الثالثة يكرر المرسِل رسالته، والهدف الرئيس منها الذي يعدّ الهدف من عملية الاتصال بأكملها(١).

وتفترض الدِّراسة أن حوليات التَّهنئة تتضمن الخطوات الثلاثة لنظرية التَّواصُل الإقناعيّ لميشيل لو نيت؛ فالغَزَّاوِيّ يريد أن ينشر الوعي بمشكلة الانحلال التي كانت تعاني منها شبه الجزيرة العربيَّة. ورغبة في تقديم أدلة منطقية على هذه المشكلة يعرض الغَزَّاوِيّ في قصيدته أمثلة لأنواع مختلفة من الانحلال كان المجتمع يعاني منها قبل مجيء الملك عبد العزيز للحكم؛ وهي العقيدة الفاسدة من شركيَّات وبدع، واعتداءات القبائل على بعضها بسبب عدم وجود القوانين التي تطبَّق على المخالفين، ومحاولة بعضهم لتقويض حكم الملك، والحرابة –التي تتضمن القتل والسَّرقة والترويع– التي كان يتعرض لها الحجاج في طريقهم إلى مكة. ثمَّ يقدم الغَزَّاوِيّ التوجيه المناسب للوصول إلى الحلّ الإرشاديّ الذي يتمثل في وجود الملك

1– Le Net, Michel. L'état annonceur: techniques, doctrine, et morale de la commun sociale, Paris: les éditions d'organisation, 1981.

عبدالعزيز؛ بوصفه حاكمًا يتصف بالفضيلة الدِّينيَّة التي تؤهله لمقاومة مشكلة الانحلال، ولإحياء المجتمع والنهوض به، ولتحويله إلى حال الاستقرار والأمن.

ويستخدم الغَزَّاوِيّ في قصيدته اللُّغة الشِّعريَّة السَّهلة الواضحة المباشرة في عرضه للمشكلة ولأدلتها المنطقيَّة، وفي توجيهه للوصول إلى الحلّ؛ لكي تصبح قصيدته مفهومة للمخاطَب، وقابلة للانتشار بشكل واسع وسريع. ويوظّف الغَزَّاوِيّ التَّكرار في قصيدته؛ بوصفه الخطوة الثَّالثة من خطوات نظرية التَّواصُل لإقناع المخاطَب؛ فيكرر الغَزَّاوِيّ رسالته في حوليَّاته وهدفه منها بطريقتين: الأولى لها علاقة بالسياق الخارجي للقصيدة، ويتمثل في تكرار قصائد التَّهنئة سنويًا في زمان ومكان محددين أمام مجموعة محددة من المخاطبين؛ لتشكل قصائده مجموعة شعرية قائمة بذاتها تدعو إلى رسالة محددة. والثانية لها علاقة بالنسق الداخلي للقصيدة، وتتمثل في تكرار الموضوعات الداخليَّة والأسلوب، لا سيما المعجم اللفظي.

ولكي تتضح علاقة نظرية التَّواصُل الإقناعيّ بلاميَّة الغَزَّاوِيّ التي يهنئ بها الملك عبد العزيز بعيد الأضحى تناقش الدِّراسة قسم المديح، لا سيما موضوعاته الداخليَّة وأسلوبه، للإجابة عن فرضياتها.

•قصيدة (يبشر باسم الله في كل موسم) (بحر الطويل): [١]

١ دَعَـانِي (مِـن ذِكْـرَى حبِيـبٍ ومَنْـزِلِ) وَهَاتَـا اسـمعَانِي فِي(الكِتَـابِ المُنَـزَّلِ)
٢ وَعُوجًا عَلَى (الآيَـاتِ) مِـن كُـلِّ مُعْجِـزٍ فَفِيهَـا جَلَـاءُ الحَـقّ فِـي كُـلِّ مُعْضِـلِ
٣ أَلَمَّـا بِهَـا واسـتَجْلِيَاها بِعَبْـرَةٍ فَـإِنَّ بِهَـا نُـورُ (الهِدَايَـةِ) يَنْجَلِـي
٤ فَمَـنْ رَامَ دَارَ الخُلْـدِ لَـمْ يُلْـقَ غَيْرَهَـا إِلَيْـهِ سَـبِيلًا مُحْكَمًـا غَيْـرَ مَعْـوَلِ
٥ وكَـرِّزْ (حَـدِيثَ) المُصْـطَفَى ورَشَـادَهُ فَـذَلِكَ أَولَـى مِـنْ خِطَـابِ مُرْسَـلِ[٢]
٦ وَرِدْنِـي بِـهِ شَـوْقًا وَحُبًّـا وَبَهْجَـةً فَمَـا هُـوَ إِلَّـا كَـالرَّحِيقِ الْمُسَلْسَـلِ

١- العطوي، مسعد عيد، أحمد الغزاوي وآثاره الأدبية، ط١، مسعد عيد العطوي، الرياض، ١٩٨٦م، ٢/٧٣٤-٧٣٧.

٢- كرّز: يطلق على الواعظ بالإنجيل، وهو هنا على الواعظ بالقرآن. - هامش الديوان، ٢/٧٣٤.

٧ وَخَـــلِّ أَخِلَّـــاءَ الغَوايَـــةِ وَالهَـــوَى يُجِيلُـــونَ أَقْـــدَاحَ الهَـــوَانِ المُنَكَّـــلِ
٨ وَلُـــذْ بِالَّـــذِي ضَـــحَّى سُـــوَيْدَاءَ قَلْبِـــهِ لِتَأْيِيـــدِ دِيـــنِ اللهِ مَـــوْلَى التَّفَضُّـــلِ[1]
٩ (بِمِلْـــكٍ) إِذَا وُفِّقْـــتَ حَقَّقْـــتَ أَنَّـــهُ مَنَـــارَةُ شَـــرْعٍ فِـــي زَمَـــانٍ تَحَلَّـــلِ
١٠ مُبَـــدِّدِ أَحْلَـــاكَ الضَّـــلَالَةِ (بِالهُـــدَى) وَحَامِي حِمَـــى (الإِسْـــلَامِ) فِـــي كُـــلِّ مَجْهَـــلِ
١١ بَبِيـــتُ عَلَـــى سُـــهْدٍ لِنُصْـــرَةِ دِينِـــهِ إِذَا آثَـــرَ اللَّـــاهُونَ نَـــومَ التَّغَـــزُّلِ
١٢ وَيَرْنُـــو إِلَـــى مَجْـــدِ (الحَنِيفَـــةِ) طَامِحًـــا فَيَسْـــعَى إِلَيْـــهِ مَنْهَلًـــا بَعْـــدَ مَنْهَـــلِ
١٣ تُصَـــارِعُهُ الأَهْـــوَاءُ وَهْـــوَ يَـــذُودُهَا (كَجُلْمُودِ صَـــخْرٍ حَطَّـــهُ السَّـــيْلُ مِـــنْ عَـــلِ)
١٤ فَكَـــمْ بِدْعَـــةٍ كَانَـــتْ بَلَـــاءً وَمِحْنَـــةً أَحَـــاطَ بِهَـــا مِـــنْ جَانِبَيْهَـــا بِمِعْـــوَلِ
١٥ وَكَـــمْ مِـــن حِيْلَـــةٍ خَرْسَـــاءَ كَانَـــتْ مَثَابَـــةً عَلَـــى الجَهْـــلِ تُـــؤْتَى مِـــنْ وَرَاءِ التَّوَسُّـــلِ
١٦ وَكَـــمْ ظُلَـــلٍ قَـــدْ كَـــانَ مَصْـــدَرَ فِتْنَـــةٍ يَطُـــوفُ عَلَيْـــهِ كُـــلُّ غِـــرٍّ مُخَبَّـــلِ[2]
١٧ يُظَـــنُّ بِـــهِ مَـــا لَـــيسَ يَمْلِـــكُ أَمْـــرَهُ (وَهَـــلْ عِنْـــدَ رَسْـــمٍ دَارِسٍ مِـــن مُعَـــوَّلِ)
١٨ فَقَـــامَ إِلَـــى (التَّوحِيـــدِ) يَـــدْعُو لِرَبِّـــهِ إِذِ النَّـــاسُ حَيْـــرَى فِـــي فَيَـــافِي التَّـــذَلُّلِ
١٩ فَأَيَّـــدَهُ الـــرَّحمَنُ فَامْتَـــدَّ ظِلُّـــهُ وَأَصْـــبَحَ بِـــالتَّوفِيقِ أَعْظَـــمَ مُعْتَلِـــي
٢٠ يُبَشِّـــرُ بِاسْـــمِ اللهِ فِـــي كُـــلِّ مَوسِـــمٍ وَيَرْقُبُـــهُ بِالغَيْـــبِ فِـــي كُـــلِّ مَـــنْ يَلِـــي
٢١ وَيَزْجِـــي الجُيُـــوشَ الزَّاخِـــرَاتِ كَأَنَّهَـــا غَمَـــامٌ تَمَطَّـــى فِـــي جَنُـــوبٍ وَشَـــمأَلِ
٢٢ يُرِيـــدُ فَتَمْضِـــي طَائِعَـــاتٍ لِـــأَمْرِهِ وَتَفْـــتَحُ بِالتَّهْلِيـــلِ أَمْنَـــعَ مَعْقِـــلِ
٢٣ فَلَـــيسَ بِـــرَاجٍ غَيْـــرَ مَرْضَـــاةِ رَبِّـــهِ وَلَـــو جَشَّـــمَتْهُ كُـــلَّ صَـــعْبٍ وَمُشْـــكِلِ
٢٤ وَيَعْمَـــلُ فِـــي ذَاتِ الإِلَـــهِ وَإِنَّـــهُ لَيَبْلُـــغُ بِالإِخْلَـــاصِ أَنجَـــحَ مَأْمَـــلِ
٢٥ فَلَيْـــتَ الَّـــذِينَ اســـتَمْرَأُوا طَعْـــمَ بَغْـــيِهِم يَـــرَونَ بِعَـــينِ الرُّشْـــدِ عُقْبَـــى التَّوَكُّـــلِ
٢٦ أَتَـــدْرُونَ مَـــنْ هَـــذَا الَّـــذِي هُـــوَ مُخْبِـــتٌ وَمَـــنْ هُـــوَ فِـــي الإِسْـــلَامِ أَكْبَـــرُ مُبْـــذِلِ
٢٧ هُـــوَ النَّاصِـــحُ المَـــأْمُونُ وَالعَاهِـــلُ الَّـــذِي تَخَوَّفَـــهُ العَـــادُونَ مِـــن كُـــلِّ مُبطِـــلِ
٢٨ هُـــوَ البَطَـــلُ المِقْـــدَامُ لَـــمْ يَخْـــشَ قُـــوَّةً تُنَاصِـــبُهُ فِـــي الحَـــقِّ رَغْـــمَ التَّهَـــوُّلِ
٢٩ هُـــوَ التَّـــارِكُ الآسَـــادَ فِـــي أَجَماتِهَـــا تَخَافَـــتْ بَعْضًـــا خِيفَـــةَ المُتَوَجِّـــلِ
٣٠ أَقَـــامَ عَمُـــودَ الـــدِّينِ بَعْـــدَ انصِـــدَاعِهِ وَمَكَّنَـــهُ بِالسَّـــيفِ بَعْـــدَ التَّقَلْقُـــلِ
٣١ فَمَـــنْ كَـــانَ مِـــن قَبْـــلِ السُّـــعُودِ وَبَأْسِـــهِ يُطِيـــقُ بُلُـــوغَ الحَـــجِّ دُونَ تَزَلْـــزَلِ
٣٢ وَمَـــنْ كَـــانَ يَسْـــطِيعُ المَنَاسِـــكَ آمِنًـــا عَلَـــى نَفْسِـــهِ مَـــا بَـــينَ جَمْـــعٍ (وَجَـــرْوَلِ)
٣٣ وَمَـــنْ كَـــانَ فِـــي الرُّؤيَـــا يُصَـــدِّقُ أَنَّـــهُ يَـــرُوحُ وَيَغْـــدُو فِـــي أَمَـــانٍ مُخَـــوَّلِ
٣٤ وَمَنْ كَـــانَ يمضِـــي فِـــي الجَزِيـــرَةِ وَحْـــدَهُ بِـــأَزْوَادِ تِبْـــرٍ فِـــي سَـــلَامٍ مُمَثَّـــلِ

١- سويداء قلبه: يعني بسويداء قلبه، وحذف الجار مراعاة للوزن.
٢- مخبّل: أفسده العشق والهوى. – هامش الديوان،٢/٧٣٥.

٣٥ وَمَـــنْ كَـــانَ يـــأتي للحجـــاز وقلبـــه يرجـــى نجـــاة مـــن حمـــام معجـــل
٣٦ وَمَـــنْ كَـــانَ لا تغـــري الثيـــاب بحتفـــه ولَـــو هِـــيَ سَـــاوَتْ نِصـــفَ حَبَّـــةِ خَـــرْدَل
٣٧ وَمَـــنْ هُـــوَ هَـــذَا الـــزَّاعمُ اليَـــوم أنَّـــهُ يُقَاسِـــي الَّـــذي قَـــدْ كَـــانَ زَعْـــمَ المضَـــلّل
٣٨ وَمَـــنْ يبغنـــي ألّـــا أقـــولَ الَّـــذي أرَى فَكُـــلُّ لِسَـــانٍ غَيـــرُ عَضـــبي مقـــول
٣٩ وَمَـــنْ ذا الَّـــذِي لا يَشـــكُرُ اللهَ نِعْمَـــةً تَحـــدَّثَ عَنهَـــا كُـــلُّ شَـــاكٍ وأعْـــزَل
٤٠ فَهَـــلْ أنَـــا إلَّـــا مُـــؤمِن لحقيقَـــةٍ هـــي الشـــمس لا تخفـــى علَـــى متأمـــل
٤١ وَهَـــلْ يَجْحَـــدُ الفَضْـــلَ الَّـــذِي هُـــوَ ظَـــاهِرٌ سِـــوَى أكْمَـــهٍ عَـــنْ مَـــنْهَجِ الحَـــقِّ معـــدل
٤٢ لَقَّـــدْ حَـــوَّلَ اللهُ المصَـــائبَ منّـــةً وعَـــوَّضَ عَنهَـــا بالحبَـــاءِ المُكمَّـــل
٤٣ فَأبْـــدَلَنَا أمْنًـــا وعَـــدْلًا فَمَرحَبًـــا بِكُـــلِّ مُجِيـــبٍ للفريضَـــةِ مُقبِـــل
٤٤ أمَولَـــايَ إنَّ المسْـــلمِينَ جَمـــيعَهُمْ ليَـــدْعُونَ أنْ تَبْقَـــى لَهُـــم خَيـــرُ مَوئـــل
٤٥ بآبَائنـــا أنـــتَ المفـــدَّى وَقَومنـــا لَعَـــدلِكَ والتَّقْـــوَى وكُـــلَ مُظَلَّـــل
٤٦ فَلَـــا زِلْـــتَ مَشْـــكُورًا عَزِيـــزًا مُوفَّقًـــا لَـــكَ النَّصْـــرُ مَعْقُـــودٌ بتَـــاجٍ مُكَلَّـــل
٤٧ ولَا برِحَـــتْ أعلامـــك الخضـــر فـــي الـــورَى مُظفـــرة فـــي كُـــلِّ بَعْـــثٍ وجَحْفَـــل
٤٨ تُسَـــالمكَ الـــدُّنيَا وتَـــدنُو لَـــكَ المُنَـــى ويَسـمُو بـــكَ الإسـلَامُ فـــي كُـــلِّ مَأْهَـــل
٤٩ ويَرْعَـــاكَ ربّ العـــرش بـــالحِفظِ إنَّـــهُ ليُشْـــكَرَ سَـــعْيَ النَّاصِـــحِ المتبَتِّـــل
٥٠ وَخَوَّلَـــكَ اللهُ القبُـــولَ مَـــعَ الرِّضَـــا وقُـــرَّة عَـــينٍ بالسُّـــعُودِ وفيصَـــل
٥١ وَصَـــانَ لَـــكَ الأبنَـــاءَ طُـــرًّا فَـــإنَّهم كَوَاكِـــبُ هَـــذَا الشَّـــرْق المتَهلِّـــل
٥٢ وَجَـــازاكَ عَنَّـــا بالَّـــذِي هُـــوَ أهْلُـــهُ مِـــنَ الخَيْـــر إذْ أصـــبحت أجـــزل مفضـــل
٥٣ وَهَنَّـــاكَ بالعِيـــدِ السَّـــعِيدِ علَـــى المَـــدَى فأنْـــتَ بِـــهِ عِيـــدٌ لكُـــلِّ مُهَلَّـــل
٥٤ وكَافَـــأكَ الحُسْـــنَى وزَادكَ غِبْطَـــةً وبَـــارِكَ فِيمَـــا نِلْتَـــهُ مِـــن تطـــول
٥٥ وأبقَـــاكَ حِصْـــنًا للعُرُوبَـــةِ شَـــامخًا تَـــذُودُ عِـــداها بالحُسَـــامِ المنهـــل
٥٦ وتَبْنِـــي لَهـــا مِـــنْ طَـــودِ عَزْمِـــكَ وحْـــدَةً تُعِيـــدُ بهـــا التَّـــاريخَ عَـــذبَ المقبـــل
٥٧ نثَلْـــتُ فُـــؤَادِي عَـــن صَـــمِيمِ عَقِيـــدَتِي وبَلْـــكَ لعَمْـــرِي طَاقَـــةُ المتخيَّـــل
٥٨ أُريـــدُ بِهَـــا وَجْـــهَ الكَـــرِيمِ لعَلَّنِـــي أَثَـــابَ ولَـــو لَـــمْ آتِكُـــمْ بمفصَـــل
٥٩ وأَخْـــتِمُ قَـــولي بالصَّـــلَاةِ مُسَـــلِّمًا علَـــى الصَّـــادِقِ المصـــدُوق أكـــرم مُرسِـــل
٦٠ وأَتْبعَـــهُ بـــالآلِ والصَّـــحبِ مَـــا دعَـــا إلَـــى اللهِ داعٍ أو هَمَـــى كُـــلُّ مُسْـــبِل

•التَّواصُل الإقناعيّ في قسم المديح:

عند دراسة قسم المديح في قصيدة ما، لا سيَّما إذا كانت أحادية التَّقسيم، يجدر مناقشة الفضائل التي نسبها الشَّاعر لممدوحه؛ لتحديد الفضيلة الرَّئيسة التي تُبنى عليها القصيدة كاملة، والتي يتولد عنها بقية الفضائل الأخرى التي تؤكّد الفضيلة الرّئيسة بتكرارها لفظًا بمفردات وصيغ مختلفة، أو معنىً بعرض أمثلة سياقيَّة تؤكّدها. بالإضافة إلى أنَّ مناقشة فضائل الممدوح ضروريةٌ لقياس ملاءمتها للسِّياقات الخارجيَّة المحيطة بالقصيدة، لا سيَّما مناسبتها التي تُسهم في توضيح حال الشَّاعر والممدوح.

ويبني الغَزَّاوِيّ لاميّته على قسم واحد هو المديح، إلَّا أنَّ تقسيمه إلى موضوعات داخليَّة ضروريٌّ لتوضيح ارتباطه بنظرية التَّواصُل الإقناعيّ من حيث التَّسلسل الموضوعِيّ المنطقيّ لرسالة الشَّاعر وأسلوبه في إيصالها للمخاطَب. يتكوَّن قسم المديح من ستين بيتًا، يمكن تقسيمها إلى ستَّة موضوعات داخليَّة، وهي:

١. التمهيد (الأبيات ١-٧).
٢. فضيلة الممدوح الرَّئيسة المتمثِّلة في العمل لدين الله. (الأبيات ٨-١٣).
٣. فضيلة نشر التَّوحيد في المجتمع (الأبيات ١٤-٢٠).
٤. فضيلة القتال لإقامة الدِّين (الأبيات ٢١-٣٠) .
٥. فضيلة تيسير أداء فريضة الحجّ للمسلمين وتأمينها لهم (الأبيات ٣١-٤٣).
٦. الدُّعاء للممدوح وتهنئته بعيد الأضحى (الأبيات ٤٤-٦٠).

١. **التَّمهيد** (الأبيات ١-٧):

يبدأ الغَزَّاوِيّ قصيدته مؤكّدًا أهمية اتّباع القرآن الكريم وسنة النبي صلى الله عليه وسلم؛ بوصفهما المعيار الرئيس لتقييم الفرد وتحديد مكانته (الأبيات١-٧). وفي الوقت نفسه يؤكد التمهيد منذ البيت الأول ضرورة ترك ما سوى القرآن والسُّنَّة، لا سيّما الشِّعر الذي يُظهر معايير مختلفة في تقييم الفرد وتحديد مكانته كشِعر امرئ القيس، لا سيما معلقته. وبناء على ذلك؛

فإن الغَزَّاوِيّ يشير منذ بداية قسم المديح إلى أنَّ الفضائل ستُقيّم بناء على المعيار الدّينيّ.

ويكثر الشَّاعر في أبيات مقطع التَّمهيد من استخدام جمل الإنشائيّ الطَّلبيّ التي تبدأ بأفعال الأمر الذي خرج عن معناه الحقيقي؛ فدلّ على معنى النُّصح والإرشاد إلى ضرورة الامتثال للكتاب والسُّنَّة؛ بوصفهما المعيار الرَّئيس لتقييم الفرد؛ وتحديد مكانته في الدُّنيا والآخرة. ويوظف الشَّاعر أيضًا الألفاظ التي تدلُّ على أهميَّة المعيار الدّينيّ والامتثال له، ومنها: "الكِتاب المنزَّل – الآيات مِن كُلِّ مُعجِزٍ – جلاء الحق – عَبرَة – نُور الهِداية – دَار الخُلدِ – سَبيلًا مُحكمًا – حَدِيث المصطَفَى ورَشَادَه".

ويعدّ هذا الاستخدام المكثّف للإنشاء الطَّلبيّ وللألفاظ المرتبطة بالمعيار الدّينيّ من الابتداء الجيِّد الذي يُمهِّد به الشَّاعر لموضوع القصيدة، لا سيَّما الفضيلة الرَّئيسَة للمَمْدُوحِ التي يَبني عَليهَا الشَّاعر قصيدته. قال ابن سنان الخفاجيّ (ت ٤٦٦هـ): "وأمَّا إذَا اُبتدئ بالمدِيحِ أو بغيرِهِ مِنَ الأَغرَاضِ فالأَحسَنُ أنْ يكوُنَ الابتداءُ دَالًّا علَى المعنَى المقْصُودِ".[١] وقال ابن الأثير (ت ٦٣٧ه): "ومن أدب هذا النوع ألا يذكر الشاعر في افتتاح قصيدة المديح ما يتطير منه وهذا يرجع إلى أدب النفس لا إلى أدب الدرس، فينبغي أن يحترز منه في مواضعه كوصف الديار بالدثور والمنازل بالعفاء وغير ذلك من تشتت الآلاف وذم الزمان، لا سيَّما إذا كان في التَّهاني فإنه يكون أشد قبحًا، وإنَّما يستعمل ذلك في الخطوب النازلة والنوائب الحادثة. ومتى كان الكلام في المديح مُفتتحًا بشيء من ذلك تطير منه سامعه، وإنَّما خُصّت الابتداءات بالاختيار؛ لأنها أول ما يطرق السمع من الكلام فإذا كان الابتداء لائقًا بالمعنى الوارد بعده توفرت الدواعي على استماعه"[٢].

١- ابن سنان الخفاجي، عبدالله بن محمد، سرّ الفصاحة، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٢م، ص٢٧٠.

٢- ابن الأثير، ضياء الدين نصر الله بن محمد، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٥م، ٢ /٢٢٤.

٢. فضيلة الممدوح الرَّئيسة المتمثِّلة في العمل لدين الله (الأبيات ٨-١٣):

يبدأ الشاعر هذا المقطع بتحديد فضيلة الممدوح الرَّئيسة؛ وهي العمل لدين الله في (البيت ٨)، ثم يؤكد الشاعر هذه الفضيلة في بقية أبيات المقطع (٩-١٣) باستخدام جمل مختلفة؛ بوصفها تكرارًا لفظيًا يحمل دلالة العمل لدين الله. ويعدّ هذا المقطع متجانسًا مع التمهيد الذي يسبقه من حيث طبيعة الفضيلة التي ينسبها الشاعر لممدوحه.

ومن ألفاظ جمل المديح المتكررة التي يؤكد بها الشاعر فضيلة الممدوح الرئيسة: "منارة شرع – مبدد أحلاك الضلالة بالهدى – حامي حمى الإسلام – يبيت على سهد لنصرة دينه – ويرنو إلى مجد الحنيفة – تصارعه الأهواء وهو يذودها".

ويخالف الغَزَّاوِيّ في هذا المقطع التَّقليد الشِّعريّ في قصيدة المديح التُّراثيَّة؛ فيتخلّى عن معيار النَّسب الكريم؛ بوصفه سببًا مهمًا لاعتلاء المكانة العُليا في المجتمع. يقول ابن رشيق (ت ٤٥٦هـ) عن التَّقليد الشِّعريِّ لقصيدة المديح التُّراثيَّة: "وإنما طريقة المدح أن يجعل الممدوحَ يشرف بآبائه، والآباء تزداد شرفًا به؛ فجعل لكل واحد منهم حظًا في الفخر وفي المدح نصيبًا، وإذا حصلت الحقائق كان النَّصيبان مقسومين، بل كان الكلّ خالصًا لكلّ فريق منهم؛ لأنَّ شرف الوالد جزء من ميراثه، ومنتقل إلى ولده كانتقال ماله، فإنْ رعَى وحَرسَ ثبتَ وازدَادَ، وإنْ أهملَ وَضيَّعَ هَلكَ وَبادَ. وكَذلكَ شَرفُ الوالدِ يعمُّ القَبيلةَ، وللولدِ منهُ القِسْمُ الأَوْفَرُ والحظُّ الأَكبَرُ"[١].

بالإضافة إلى أنَّ الشَّاعر لم يهتم في هذا المقطع بفضيلة سوى فضيلة الممدوح الدِّينيَّة، ودورها في بناء المجتمع على الفضيلة، والدفاع عنه ضد أعداء الدين. كما أن الغَزَّاوِيّ لم يركز على البهاء والزينة المتعلقة

١ – ابن رشيق، الحسن بن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق وتعليق: محمد محيي الدين عبدالحميد، ط٥، دار الجيل، بيروت، ١٩٨١م، ٢/١٤٥-١٤٦.

بالأوصاف الجسديَّة؛ كمظاهر الأبهة والفخامة التي يتخذها الملوك في العيد، ولم يصف، أيضًا، مظاهر العيد؛ كموكب الممدوح، وهيبة طلعته في خروجه على النَّاس، أو بلاغته وهو يخطب فيهم. وتجاوز ذلك كله؛ ليركز على فضيلة الممدوح الدِّينيَّة الخُلُقيّة المعنويَّة التي تسهم في إحياء المجتمع. يقول قُدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ) في أهمية التركيز على الفضائل الخلقيَّة في قصيدة المديح التُّرَاثيَّة: "ومن الأمثلة الجياد في هذا الموضع ما قاله عبد الملك بن مروان لعبيد الله بن قيس الرقيات حيث عتب عليه في مدحه إياه، فقال له: إنَّك قلتَ في مُصعَب بن الزُّبير:

إِنَّما مُصْعَبٌ شِهَابٌ مِنَ اللهِ تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظَّلْمَاءُ

وقُلْتُ فيَّ:

يَأْتَلِقُ التَّاجُ فَوقَ مَفْرِقِهِ عَلَى جَبِينٍ كَأَنَّهُ الذَّهَبُ

فوجَّه عتب عبد الملك إنمَّا هو من أجل أنَّ هذا المادحَ عَدلٌ عَن بعضِ الفضائلِ النَّفسيَّةِ التي هيَ العقلُ والعفَّة والعدلُ والشَّجاعة إلى ما يليق بأوصاف الجسم في البهاءِ والزّينةِ، وقَد كنَّا قدَّمْنا أنَّ ذلكَ غَلَطٌ وعَيبٌ"[1].

٣. **فضيلة نشر التوحيد في المجتمع** (الأبيات ١٤-٢٠):

يركّز الشَّاعر في هذه المقطع على فضيلة نشر التَّوحيد بمحاربة البدع والشِّركيَّات. وتُعدّ هذه الفضيلة تكرارًا معنويًّا للفضيلة الرئيسة في القصيدة، وتطبيقًا عمليًّا لها. ويختار الشَّاعر البدء بذكر هذه الفضيلة؛ لأهميتها في بناء المجتمع الذي لا يمكن أن يتأسَّس بشكل قويم إلَّا بتطبيق العقيدة الصَّحيحة.

ويكرر الشاعر كم الخبرية التي تدل على الكثرة في (الأبيات ١٤، و١٥، ١٦)؛ ليدلل بها على جهود الممدوح المتواصلة في نشر التوحيد. ومن الجمل التي يكررها الشاعر لتأكيد هذه الفضيلة: "أحاط بها من جانبيها

١- قدامة، أبو الفرج قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، (د. ت)، ١٨٤-١٨٥.

بمعول – فقام إلى التوحيد يدعو لربه". وأهم بيت في هذا المقطع هو (البيت العشرون) الذي يلخّص مضمون القصيدة. فالتكرار الزمني للمواسم، لا سيما عيد الأضحى، يصاحبه تكرار لفضائل الممدوح؛ لذا ترتبط المواسم المتكررة، لا سيما الدِّينيَّة، بالممدوح وحده لارتباطه بها؛ بوصفه سببًا في استقرارها واستمرارها.

٤. **فضيلة القتال لإقامة الدين** (الأبيات ٢١-٣٠):

تعد فضيلة القتال في سبيل الله –التي يخصص لها الشاعر المقطع الرَّابع من مقاطع المديح– تأكيدًا لفضيلة العمل لأجل الدين، وتكرارًا معنويًا لها؛ بوصفها تطبيقًا عمليًّا لها. ويمزج الشَّاعر التَّكرار المعنوي للفضيلة الرئيسة بالتكرار اللفظي؛ فيستخدم الألفاظ المتكرّرة التي تؤكّد فضيلة القتال من أجل إقامة الدين، ومنها: "وتفتح بالتهليل أمنع معقل – فليس براج غير مرضاة ربه – ويعمل في ذات الإله – ليبلغ بالإخلاص أنجح مأمل – عقبى التَّوكُّل – لم يخشَ قوَّة تناصبه في الحق – أقام عمود الدين – مكّنه بالسيف". ويكرر الشَّاعر المؤكدات اللفظية باستخدام الضمير (هو) في مطلع الأبيات (٢٧، و٢٨، ٢٩)؛ لتأكيد نسبة الفضيلة للممدوح.

٥. **فضيلة تيسير أداء فريضة الحجّ للمسلمين وتأمينها لهم** (الأبيات ٣١-٤٣):

يركّز الشَّاعر في المقطع الخامس من مقاطع قسم المديح على فضيلة تيسير فريضة الحج للمسلمين كافّة. وتعدّ هذه الفضيلة، أيضًا، تأكيدًا للفضيلة الرئيسة في القصيدة، وتكرارًا معنويًا لها؛ بوصفها تطبيقًا عمليًا للعمل لأجل الدين وأهله. ويؤكد الشاعر في هذا المقطع حال انعدام الأمن في الجزيرة العربيَّة، وتأثيره على أداء فريضة الحج قبل مجيء الملك عبد العزيز؛ ليؤكد

أثر جهوده في تأمين الحج والحجاج، لا سيما جهوده العسكرية في دفع المعتدين من أهل الحرابة وغيرهم[١].

ويكثف الشاعر استخدام الإنشاء الطلبي في هذا المقطع؛ فيكثر من تكرار استخدام أداتي: الاستفهام (من) (الأبيات ٣١-٣٩)، و(هل) (البيتان ٤٠-٤١) اللتين خرجتا عن معنى الاستفهام إلى التَّقرير والتَّأكيد والتَّعظيم؛ لتأكيد فضيلة الممدوح، ودوره في تيسير فريضة الحج للمسلمين كافَّة. وتعدّ هذه الفضيلة أقرب فضائل القصيدة اتِّصالًا بمناسبتها، فناسب ذلك الاستخدام المكثف للإنشاء الطَّلبيّ، لا سيَّما أن هذا المقطع يسبق مقطع الدُّعاء، الذي يتضمن تهنئة الممدوح بالعيد مباشرة. ويختم الشاعر هذا المقطع بجمل خبريَّة تقريريَّة يبدؤها بـ(لقد)؛ لتأكيد الاستقرار والرَّخاء الأمن والعدل الذي انتشر في المجتمع بسبب جهود الممدوح (البيتان ٤٢-٤٣).

٦. **الدعاء للممدوح وتهنئته بعيد الأضحى** (الأبيات ٤٤-٦٠):

يبدأ الغَزَّاوِيّ المقطع السَّادس والأخير من قسم المديح بالدُّعاء للممدوح على لسان المسلمين كافَّة؛ تأكيدًا لأثر فضيلة الممدوح الرَّئيسة، وتكرارًا معنويًّا وموضوعيًّا لها. ويحرص الشَّاعر على دمج الدعاء بالفضيلة في الأبيات (٤٤-٥٦)؛ ليؤكد ارتباط استحقاق الممدوح للدُّعاء بسبب فضيلته الدِّينيَّة.

---

١ - كان الحجاج يتعرضون في رحلتهم إلى الحج لصعوبات كبيرة قبل عهد الملك عبد العزيز، مثل الإتاوات التي كانت تفرض على القوافل للعبور من منطقة إلى أخرى، بالإضافة إلى مواجهة قطاع الطريق الذين يؤذون الحجاج بالسَّرقة والتَّرويع والقتل، بالإضافة إلى تحديات الظروف المناخيَّة والبيئيَّة؛ كالحرّ الشَّديد والمطر الغزير، والوحوش الضَّارية والزَّواحف السَّامة كالثعابين والعقارب. ولمعرفة المزيد عن صعوبة الحج قبل عهد الملك عبد العزيز، والتحول الإيجابي الذي حصل بعد مجيئه للحكم انظر: المازني، إبراهيم عبد القادر، رحلة إلى الحجاز، القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ٢٠١٢م. أرسلان، شكيب، الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف، تحقيق وتعليق: محمد رشيد رضا، القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ٢٠١٤م. رفعت، إبراهيم، مرآة الحرمين، القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٢٥م.

وأهمّ بيت في هذا المقطع، بل في القصيدة هو (البيت الثالث والخمسون)؛ لأنَّ الشّاعر يعرض فيه النَّتيجة المنطقيَّة لفضيلة الممدوح الدِّينيَّة التي أدتْ إلى التحوُّل الإيجابيّ للمجتمع، واستكمال حاله المستقرة المتمثلة بأداء الحجّ والابتهاج بالعيد.

وَهُنَاكَ بِالعِيدِ السَّعِيدِ عَلَى المَدَى فَأَنْتَ بِهِ عِيدٌ لِكُلِّ مُهَلِّلْ

فالشاعر يدعو بلسان حال المسلمين أن يطيل الله بقاء الممدوح ليهنأ بالعيد السَّعيد لسنوات أخرى مقبلة؛ لأن بقاء الممدوح يعني استمرار أداء فريضة الحج، والفرح بعيد الأضحى في حال الأمن والاستقرار. وعليه؛ يرتبط الممدوح بالعيد السعيد ارتباط السبب بالنتيجة، حتى يصبح الممدوح نفسه عيدًا للمسلمين كافَّة. بالإضافة إلى أن توحيد الشاعر بين الممدوح والعيد يشير إلى أفضلية الممدوح على الناس كافة كما أن يوم عيد الأضحى أفضل أيام السَّنة كافَّة.

وقد أحسن الغَزَّاوِيّ بإنهاء القصيدة بمقطع الدعاء –بما فيه من تهنئة بالعيد– لمناسبته لمقام الحال، ولعلاقته المباشرة في تأكيد مكانة الممدوح العليا في المجتمع. قال ابن رشيق: "وأما الانتهاء فهو قاعدة القصيدة، وآخر ما يبقى منها في الأسماع، وسبيله أن يكون محكمًا؛ لا تمكن الزيادة عليه، ولا يأتي بعده أحسن منه، وإذا كانَ أوّلُ الشِّعرِ مِفتاحًا لهُ وَجبَ أنْ يكونَ الآخرُ قفلًا عليهِ"(١). وقال أيضًا: "وقيل: البلاغة أن يكون أولُ كلامك يدلّ علَى آخرِهِ، وآخرُهُ يَرتبِطُ بأوّلِه"(٢).

- **التَّواصُل الإقناعيّ والتكرار في القصيدة:**

ويظهر في المناقشة أعلاه أنَّ الغَزَّاوِيّ يكثف استخدام التكرار بأوجهه المختلفة –معنىً ولفظًا– في القصيدة؛ ومن ذلك تكرار الفضيلة الرَّئيسة بتكرار الفضائل المتفرِّعة منها؛ بوصفها أمثلة عملية تؤكِّدها. ويهتمُّ الشَّاعر

١ – ابن رشيق، العمدة، ٢٣٩/١.

٢ – السابق، ٢٤٤/١.

بالتَّرتيب التَّسلسليّ المنطقيّ لفكرة القصيدة؛ لذا يتدرّج في عرض رسالة القصيدة من العام إلى الخاصّ، ومن السَّبب إلى النَّتيجة. فيبدأ الشاعر في مقطع التَّمهيد بذكر المعيار الديني، وأهمية الامتثال له، ثم يذكر فضيلة الممدوح الرَّئيسة، بعد ذلك يذكر الفضائل المؤكدة لها، ومنها فضيلة تيسير الحجّ الملائمة لمناسبة القصيدة، ثمَّ يختم بالدُّعاء والتَّهنئة. ومن التَّكرار الأسلوبيّ في مقاطع قسم المديح تكرار المعجم اللفظي، والإنشاء الطلبي، والضَّمائر المنفصلة؛ لتأكيد الفضيلة الرَّئيسة للممدوح(١).

ويهدف الغَزَّاوِيّ من تكثيف تكرار الفضيلة في قصيدة التَّهنئة الموسميَّة بعيد الأضحى إلى جعل الفضيلة عادة عند الممدوح ومَلَكَة فيه؛ فيصبح بقاء الممدوح وظهوره الحوليّ في موسم الحج الديني ذا تأثير إيجابي في اكتمال الفرح بنعمة العيد التي أصبحت مرتبطة بالممدوح نفسه. قال القرطاجنيّ (ت ٦٨٤هـ): "وجميع تلك الأفعال ونقائضها إنَّما تعدُّ فضائل أو رذائل؛ فيستوجبُ عليها الثَّناءَ المطلقَ أو الذَّمَّ المطلقَ، ويُعتقد في صاحبِها أنَّهُ خَيِّرٌ أو شَريرٌ، إذا حصلَتْ لهُ فيها ملكةٌ، وصارتْ له عادة لا يفارقها إلى ما ناقضها. فإنْ وقع المسمّى فضيلة منه، ولم يتبعه بمثله، ولا تمادى عليه لم يستحق أن يسمى فاضلًا ولا أن يُثنى عليه الثناء المطلق"(٢).

وطريقة الغَزَّاوِيّ في حشد أنواع التكرار المعنوي واللفظي -التي يثبت بها نسبة الفضيلة الدِّينيَّة الرَّئيسة للممدوح- تؤكد مفهوم الإغراق في الفضيلة الذي لا يليق إلا بالملك الممدوح وحده. قال قدامة: "ومن الشُّعراء من يُغرق في المدح بفضيلة واحدة أو اثنين، فيأتي على آخر ما في كل واحدة منهما أو أكثر، وذلك إذا فعل مصيبًا به الغرض في الوقوع على الفضائل، ومقصرًا عن المدح الجامع لها، لكنَّه يجود المديح حينئذ كلما

١ - أشارت الدراسة آنفًا إلى أمثلة التَّكرار الأسلوبيّ في موضوعات قسم المديح.

٢- القرطاجني، أبو الحسن حازم بن محمد، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، ط٣، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٦م، ١٦٧-١٦٨.

أغرق في أوصاف الفضيلة، وأتى بجميع خواصها أو أكثرها"[١]. وقال ابن رشيق: "إنَّ الملوكَ لا تُمدحُ بما يلزمُها فعلُهُ كَمَا تمدحُ العامَّةُ، وإنَّما تمدحُ بالإغرَاقِ والتَّفضيلِ بمَا لَا يتَّسِعُ غَيرُهُم لِبذْلِهِ"[٢]. وقال أيضًا: "وإذَا كانَ الممدوحُ ملكًا لم يُبالِ الشَّاعِرُ كيفَ قالَ فيهِ، ولَا كَيفَ أَطْنبَ، وذلكَ محمودٌ، وسواهُ المذمومُ....وكذلكَ لا يجبُ أنْ يمدحَ الملكُ ببعضِ ما يتَّجهُ في غيرهِ من الرُّؤساءِ، وإنْ كانَ فضيلَةً"[٣].

وبناءً على ذلك؛ فإنَّ السَّبب الذي يجعل الغَزَّاوِيّ يصرُّ على الإغراق في الفضيلة الخلقيَّة في مدحه للملك عبدالعزيز هو أهميتها في تأكيد رسالة القصيدة؛ بوصفها وسيلة يقنع بها المخاطَب بمكانة الملك عبد العزيز العليا في المجتمع. وبذا؛ تصبح مكانة الملك عبد العزيز التي ترتبط بالفضيلة في العصر الحديث مشابهة لمكانة الحاكم في التُّراث العربي الإسلاميّ، لا سيمَّا الشّعريّ[٤].

وبما أن الغَزَّاوِيّ مهتم برسالة القصيدة في ترويج مكانة الممدوح فإنَّه يستخدم الأسلوب السهل في التَّواصُل مع المخاطب؛ لإيصال رسالة القصيدة بشكل مباشر وواضح. ولعل مناسبة القصيدة، وغرض الشَّاعر منها، وطبيعة الممدوح، تفرض هذا الأسلوب؛ فالخطاب موجه إلى الملك ووفود المسلمين التي تشهد هذه المناسبة الدِّينيَّة العظيمة بدلالتها المختلفة، لا سيَّما دلالة الأمن والاستقرار. قال أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ): "وأمَّا الجزل والمختار من

١- قدامة، نقد الشعر، ١٠٦.

٢- ابن رشيق، العمدة، ١٣٠/٢.

٣- السابق، ١٢٩/٢.

٤- الإغراق في الفضيلة؛ بوصفه أساسًا وقرينًا لتبوّء الحاكم المكانة العليا في المجتمع يعدّ شائعًا في الموروث الشعري العربي، لا سيما في شعر أهم شعراء العصور التراثية الذهبية زمن الدولتين الأموية والعباسية الذين اشتهروا بمدح الخلفاء والأمراء؛ كالأخطل، وجرير، وأبي تمام، والبحتري، والمتنبي؛ فقد جعلوا الخلفاء والأمراء يتمتعون باكتمال الفضيلة التي أورثتهم المكانة العليا في المجتمع.

الكلام فهو الذي تعرفه العامَّة إذا سمعتْه، ولا تستعمله في محاوراتها"[١]. وأتى العَسكريّ بعد قوله السَّابق بشاهدين شعريّين في غرضي: المديح، والفخر، وعلّق قائلًا: "فهذَا وإنْ لمْ يكنْ من كلامِ العامَّة فإنَّهم يعرفونَ الغرضَ فيهِ، ويقفونَ على أكثَر معانيهِ؛ لحسْنِ ترتيبهِ، وجودةِ نسجهِ"[٢]. وأضاف العسكريُّ في موضع آخر: "والمنظوم الجيّد ما خرج مخرج المنثور في سلاسته، وسهولته واستوائه، وقلَّة ضروراته"[٣]. وقال ابن رشيق: "وسبيلُ الشَّاعر–إذا مدحَ ملكًا– أن يسلكَ طريقةَ الإيضاحِ والإشادةِ بذكرهِ للمَمدُوحِ، وأن يجعلَ مَعانيَهُ جزْلةً، وألفَاظَهُ نقيَّةً، غيرَ مُبتذلَةٍ سُوقيَّة"[٤]. وأضاف ابن رشيق في موضع آخر: "وقال آخر: البلاغةُ أن تُفهمَ المخاطبَ بقدْرِ فَهْمهِ، مِن غيرِ تعبٍ عَليكَ"[٥].

ويقوم الغَزَّاوِيّ باستراتيجية التكرار على مستوى السياقات الخارجية؛ فيربط فضيلة الممدوح الدِّينيَّة بأحداث وبأزمنة متكررة، ومن ذلك التَّكرار الموسميّ لقصائده في تهنئة الملك ومدحه في المناسبات الدِّينيَّة، لا سيَّما قصائده في عيد الأضحى. وتكرار ذكر الفضيلة الدِّينيَّة الرئيسة –لفظًا ومعنًى– هي طريقة بلاغية يلجأ إليها الغَزَّاوِيّ لإقناع المخاطب برسالة القصيدة. وعليه، فالغَزَّاوِيّ يكثف استخدام التكرار لمحاولة تأكيد فضيلة الممدوح وتثبيتها في ذهن المخاطب؛ فيغذّي بها الوعي الفرديّ؛ ومن ثم الوعي الجمعي لتصبح شخصية الممدوح حاضرة في الذاكرة الفردية والجمعية لضمان سيرورة مكانته الزمنية. فالغَزَّاوِيّ –إذن– يهتمّ بعرض

١– العسكري، أبو هلال الحسن بن عبدالله، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، تحقيق: على محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٢م، ص٦٤–٦٥.

٢– السابق، ٦٦.

٣– السابق، ١٦٥.

٤– ابن رشيق، العمدة، ١٢٨/٢.

٥– السابق، ٢٤٤/١.

أنموذج الفضيلة الفرديّ الممتدّ، الذي يضمن حال الاستقرار المستمرّ للمجتمع.

- **التَّواصُل الإقناعيّ ونظرية الفضيلة:**

لكي تتَّضح أهمية تركيز الغَزّاوِيّ في قصيدة التَّهنئة على الفضيلة؛ بوصفها المعيار الرَّئيس لإقناع المخاطب بمكانة الملك عبد العزيز العُليا في المجتمع تجدر الإشارة إلى نظريَّة الفضيلة (The Virtue) لياسين نوراني Yaseen Noorani، التي تناقش طبيعة الفضيلة التي تختلف في العصور العربيَّة القديمة عن العصر الحديث من حيث علاقتها باعتلاء الفرد للمكانة العُليا في المجتمع.

بحسب Noorani، فإنَّ الاتّصاف بكمال الفضيلة له عَلاقة وطيدة بتحديد المكانة داخل المجتمع، لا سيَّما المكانة العُليا التي تؤهّل الفرد للتَّأثير على المجتمع. بالإضافة إلى أن المدح بكمال الفضيلة –بوصفها معيارًا يحدّد مكانة الأفراد في الهرم الاجتماعيّ– لم يعد مقتصرًا على الحاكم؛ كما جرتْ به العادة في النُّصوص الأدبيَّة التُّراثيَّة؛ كقصائد الشُّعراء في العصور الذَّهبيَّة، بل يمكن أن تظهر الفضيلة في العصر الحديث؛ بصفتها المكتملة في أفراد المجتمع على اختلافهم. وعليه؛ فإنَّ النُّصوص الأدبيَّة في العصر الحديث –ابتداءً من نصوص شعراء الإحياء– تقضي بإمكانيَّة اكتمال الفضيلة في أي فرد من أفراد المجتمع؛ ومن ثمَّ ليس بإمكانه أن يشارك في السُّلطة فحسب، بل أن يستحوذ –في المجتمعات الحديثة– على المكانة الاجتماعيَّة ذاتها، التي كان يستحوذ عليها الحاكم المتصف بالفضيلة في المجتمعات العربيَّة القديمة؛ ومن ثم يكون له القدرة ذاتها على التَّأثير في المجتمع[1]. ووفقًا لمناقشة Noorani فإنَّ "ظهور القوميَّة في الشَّرق الأوسط في أواخر القرن التَّاسع عشر استلزم طريقة جديدة لتصوّر العلاقة بين الذَّات

1 – Noorani, Yaseen, Culture and Hegemony in the Colonial Middle East, Palgrave Macmillan, N.Y. 2010, 23-48.

الفرديَّة والنّظام الاجتماعيّ، وهي طريقة جديدة لفهم انـــدماج الأفـــراد فـــي المجتمع الذي يعدّ بنية أخلاقيَّة مستقلَّة"[١].

ومع أن قصيدة التَّهنئة بالعيد تنتمي إلى العصر الحديث فإنها تخـــالف نظرية Noorani من وجه، وتتفق معها من وجه آخر. يشابه الغَزَّاوِيّ في حوليَّاته، لا سيما لاميّته، قصائد التَّهنئة التراثية فـــي الفتـــرات التاريخيَّـــة القديمة، لا سيما في تأكيد مكانة الحاكم؛ بوصفه الأنموذج الأعلى للفضيلة بما فيه من صفات استثنائية جعلته يصل إلى قمة الهرم الاجتماعي فـــي زمنـــه وبيئته. وعليه؛ يتضح أنَّ الغَزَّاوِيّ يحاول أن يؤكّد مفهوم الفضيلة التُّراثـــيّ، الذي تسيّد التاريخ العربي الإسلاميّ، لا سيما الشعري، في ممدوحه. وبذلك؛ يخالف الغَزَّاوِيّ بعض شعراء الإحياء، الذين استشهد بهم Noorani لإثبات نظريته؛ كالشَّاعر البارودِيِّ الذي يحاول في ديوانه أن يقدم مفهوم الفضـــيلة بشكل جديد، يؤكد به أنها تتحقق في أفراد المجتمع كما تتحقق في الحاكم، بل يمكن أن يتجاوزوه فيها.

ومع أن قصيدة التَّهنئة تخالف نظريَّة Noorani في طبيعة الفضـــيلة في العصر الحديث فإنَّها تتَّفق معها في مفهوم ارتباط مكانة الفرد العليا فـــي المجتمع بالفضيلة، وأنَّ بينهما عَلاقة طرديَّةً؛ فكلَّما زادت الفضيلة لدى الفرد زادت فرصته في اعتلاء المكانة العُليا في المجتمع. يقـــول Noorani: "إنَّ قدرة الأفراد لتحقيق الفضيلة –أو بمعنى آخر التَّحكُّم في الذَّات– ومـــن ثـــمَّ القيام بدور مهمّ في إنشاء نظام اجتماعيّ ليس أمرًا عشوائيًّا، بل يتطلَّب تقدُّمًا عظيمًا في المعرفة وممارسة شاقَّة لضبط النَّفس. وعليه؛ فإن درجة الفضيلة التي يبلغها الفرد تتناسب مع درجة السُّلطة الاجتماعيَّة التـــي يســـتحقها"[٢]. ويكرر الغَزَّاوِيّ في قصيدة التَّهنئة أثر فضائل الملك عبدالعزيز في مكانتـــه، لا سيَّما في موضوعات قسم المديح الدَّاخليَّة (٢، ٣، ٤، ٥)، وأبياتها التـــي

1 –Noorani, Culture and Hegemony, 23.

2 –Noorani, Culture and Hegemony, 27.

تدلّ على قدرة الملك الفائقة على ضبط النَّفس، وحكمته في التَّعامل مع التَّحديات التي تدل على تقدُّمه المعرفيّ الملائم لقيادة المجتمع؛ ومن ثم تظهر النَّتيجة في تصوير اعتلاء الممدوح المكانة العليا في المقطع الأخير من المديح (الموضوع ٦)، لا سيَّما في (البيت ٥٣)؛ بوصفه: "[عيدًا] لكل مهلل".

• **التَّواصُل الإقناعيّ والمعارضة الشِّعريَّة:**

لمناقشة سبب لجوء الغَزَّاوِيّ إلى معارضة معلقة امرئ القيس تركز الدِّراسة على ما يتوافق مع إثبات فرضيتها؛ أيْ دور المعارضة الشِّعريَّة في تأكيد دور فضيلة الممدوح الدِّينيَّة في إحياء المجتمع وتحوله الإيجابي؛ ومن ثم في اعتلاء الممدوح المكانة العليا فيه. وبناء على ذلك؛ تركز الدِّراسة على الفكرة الرَّئيسة في قصيدتي: التَّهنئة والمعلّقة، والموضوعات الدَّاخليَّة التي تؤيدها، بالإضافة إلى علاقة القصيدتين بسياقهما الخارجيّ.

عارض أحمد الغَزَّاوِيّ بقصيدة التَّهنئة التي تقع في ٦٠ بيتًا معلّقةَ امرئ القيس التي تقع في ٧٧ بيتًا؛[1] فاتبع قافية المعلّقة وهي اللَّام المكسورة، وبحْرها وهو الطويل. وليؤكد معارضته الشِّعريَّة يستخدم الغَزَّاوِيّ عددًا من كلمات القافية الموجودة في معلَّقة امرئ القيس، إما بلفظها أو بإحدى مشتقاتها. كما أنه يضمّن (الأبيات ١، ١٣، ١٧) ثلاثة أشطر من معلَّقة امرئ القيس، هي: "مِنْ ذِكرَى حبيبٍ ومنزلِ – كَجُلْمُودِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيلُ مِنْ عَلِ – وهَلْ عِندَ رَسْمٍ دَارِسٍ مِنْ مُعوّلِ".

ومنذ قراءة الشَّطر الأوَّل من قصيدة التَّهنئة يبرز السُّؤال الآتي: لماذا يستحضر الغَزَّاوِيّ امرأ القيس ومعلَّقته في أول شطر من قصيدته باقتباس أشهر مطلع من مطالع الشعر العربي التراثي؟ وما علاقة امرئ القيس ومعلّقته بموضوع قصيدة التَّهنئة؟ وللإجابة عن ذلك يجدر ربط الفكرة

١– تعتمد الدراسة في عدد أبيات معلقة امرئ القيس، وترتيبها على رواية الأصمعي من نسخة الأعلم. يراجع، امرؤ القيس، ديوان امرئ القيس، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٤، ٧–٢٦.

الرئيسة في قصيدة التَّهنئة بالمعلقة، وشاعرها، وما يحيط بهما من السياقات الخارجية، لا سيَّما أن تكثيف الإشارة إلى المعلَّقة يبدأ بتضمين مطلعها في مطلع البيت الأوَّل من قصيدة التَّهنئة الذي يبدأ فيه الغَزَّاوِيّ، أيضًا، بالإشارة إلى القرآن الكريم الذي يعدّه –مع السُّنة الشَّريفة– في الأبيات (٢–٧) مصدر الفضيلة الدِّينيَّة؛ بوصفها المعيار الرَّئيس الذي يُعتمد عليه في تقييم الفرد مطلقًا. ويعزز الغَزَّاوِيّ هذه المقارنة بالاستعانة بلفظتي: (دعاني) و(هاتا) المتقابلتين في مطلع شطري البيتِ الأوَّل في القصيدة؛ لا لتأكيد أهمية المعيار الدّينيّ في القصيدة منذ بداياتها فحسب، بل لتأكيد أفضلية هذا المعيار مقارنة بالمعيار الذي تمثله المعلقة، وشاعرها، والذي تصوره الأخبار المستمدة من السِّياق الخارجي للشَّاعر، ومعلقته، وعلاقتها بنسقها الداخليّ، لا سيَّما موضوعات المعلّقة الدَّاخليَّة.

ولمعرفة دور المعارضة الشِّعريَّة في إثبات فضيلة الممدوح في قصيدة التَّهنئة لا بد من إعطاء صورة موجزة عن امرئ القيس، ومعلقته، ومكانتهما في التراث الشِّعريّ العربيّ. امرؤ القيس هو إمام الشُّعراء[١] بلا منازع، وقد اشتهر في الثَّقافة العربيَّة بأمور، أهمها: شاعريته العظيمة التي لا يقاربه فيها أحد؛ فهو سابق الشعراء وأشعر النَّاس؛ فهو أهم شخصية مؤثرة في الثقافة الشِّعريَّة العربيَّة بسبب منهجه الشِّعريِّ الذي اختطه، وأثر به على من جاء بعده من الشُّعراء ابتداء من أشهر شعراء العصر الجاهلي. بالإضافة إلى شهرته بكثرة تشبيبه بالنِّساء، وذكره لمغامراته العاطفية معهن في شعره، لا سيما في معلقته التي كان يتغنَّى بها العرب من شهرتها وفخامتها. ثمَّ شهرته بحياته اللاهية، وبعدم تحمله للمسؤولية، لا سيما مسؤوليَّة ولاية العهد التي ضيعها فأدّتْ إلى سوء علاقته مع والدِه حُجْر ملَكِ كندةَ الذي قاسَى كثيرًا في محاولةِ إصلاحِ ابنهِ. أضفْ إلى ذلكَ شهرةَ قصتهِ

١ – ورد هذا اللقب في كتاب البديع لابن المعتز. يراجع، ابن المعتز، عبد الله، كتاب البديع، ط٣، دار المسيرة، بيروت، ١٩٨٢م، ٦٨.

في طلبِ ثأرَ أبيهِ، ومحاولته غير النَّاجحةِ في استرجاعِ ملكهِ؛ إذ ماتَ دون تحقق مطلبِهِ بعدَ سلسلةٍ من الإخفاقاتِ التي انتهتْ بموتهِ وحيدًا بَعيدًا عن دياره بلا نصير ولا مُلْك[1].

ومعلّقة امرئ القيس تنقسم إلى غرضين: هما النَّسيب (الأبيات ١-٤٨)، والفخر الذَّاتيّ (الأبيات ٤٩-٧٧). والمعلّقة شديدة الأسْر قوية الترابط؛ فهي قصيدة طلليَّة تسيطر عليها الذكريات والحنين إلى الماضي، فتبدأ في الزَّمن الحاضر -وقت إنشاد القصيدة- بحال من الحزن العميق حين يقف الشاعر على الأطلال التي تفرض عليه الرُّجوع بالذاكرة إلى حدث حزين آخر هو فراق المحبوبة حال ظعنها (الأبيات ١-٨). ثمَّ تستدعي هذه الحال الحزينة عددًا من الأحداث السَّعيدة المتداخلة -يسميها امرؤ القيس (الأيام الصَّالحة)- التي تتكون من سلسلة من المغامرات العاطفيَّة مع نساء متعددات (الأبيات ٩-٤٣). ثم ينتقل بعد ذلك إلى وصف الليل مصورًا همومه الثقيلة (الأبيات ٤٤-٤٨)؛ فيختم بهذا الوصف قسم النسيب بحال الحزن كما بدأه. ثم يستكمل امرؤ القيس تذكّرَ (الأيام الصالحة)، ولكن في ثنايا قسم الفخر الذي يبدأ بسلسلة أخرى من مغامراته التي يصف بها فروسيَّته، لا سيما مهارته في الصيد، ويطنب في ذلك في وصف فرسه (الأبيات ٤٩-٦٦). ثم يختم امرؤ القيس معلّقته بذكرى أخرى لحادثة يصف فيها حاله وهو يتأمل مع رفقائه هطول المطر الشَّديد على الجبال، وما يخلفه وراءه من السُّيول العظيمة التي غطتْ السُّهول فأغرقت النَّباتات والحيوانات البريَّة (الأبيات ٦٧-٧٧).[2]

١ - للاستزادة من أخبار امرئ القيس ومعلّقته يراجع: ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، الشعر والشعراء، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، ط١، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢م، ٨٢/١، ١٠٥، ١١٣، ١٢٧، ١٣٦. ابن رشيق، العمدة، ٩٤/١. امرؤ القيس، ديوان امرئ القيس، ٧.

٢ - للاطلاع على أبيات قسمي النسيب والفخر في معلقة امرئ القيس، وتقسيم موضوعاتهما الداخلية يراجع، امرؤ القيس، ديوان امرئ القيس، ٨-٢٦.

تلخّص الأحداث السَّعيدة التي يشير إليها امرؤ القيس في قسمي النَّسيب والفخر حكايةَ حياته المترفة اللَّاهية قبل مقتل أبيه، وطلبه ثأره، ومحاولة استعادة ملكه. ويجمع هذه الأحداث جميعها –التي قد تبدو متفرّقة ومفكّكة– تذكر الماضي والحنين إليه. وتستدعي هذه الذِّكريات السَّعيدة الحال الماضية التي تدلّ على الطُّمأنينة والاستقرار، والتي يحاول الشاعر التصبّر بها على حاله الحاضرة بما فيها من حزن وتشتت وخطر وخُذلان.[١]

وبمعارضته الشِّعريَّة يستحضر الغَزَّاوِيّ السِّياقات الخارجيَّة للمعلَّقة وشاعرها منذ البيت الأول؛ بوصفها تمهيدًا مهمًّا ينتقل منه إلى فكرته الرَّئيسة في قصيدته، وهي إبراز ممدوحه؛ بوصفه شخصيَّة استثنائيَّة، لا سيَّما في الامتثال بالفضيلة الدِّينيَّة الأخلاقيَّة. تقول Stetkevych Suzanne: "التَّحدِّي الذي يواجه الشَّاعر الذي يختار أن يحاكي عملًا أدبيًّا عظيمًا هو استحضار قوَّة الأنموذج وسلطته وعظمته، وفي الوقت ذاته تأسيس هُويَّته الشِّعريَّة المتفردة".[٢] والغَزَّاوِيّ يستحضر الأنموذج الأعلى في الشعر العربي؛ ومن ثمَّ يحاول أنَّ يؤسِّس هُويَّته الشِّعريَّة بإعادة توجيه قصيدته إلى غرض مختلف يناسب بيئته وزمنه، فيبدأ قصيدته بالرَّفض الصَّريح للمعلَّقة، ويستبدل بها الكتاب والسُّنَّة؛ بوصفهما مصدري الفضيلة ومعياريها. فالغَزَّاوِيّ يوظف معارضته لمنافسة محورها الفضيلة وأثرها على مكانة الفرد، ثم يثبتها لممدوحه وينفيها –اعتمادًا على السياقات الخارجية وموضوعات المعلّقة الداخليَّة– عن امرئ القيس ومعلَّقته.

١– تعكس المعلقة شخصية امرئ القيس في حالين مختلفين؛ حاله قبل مقتل أبيه ومحاولته لاسترجاع الملْك، وحاله بعد ذلك. وقد تكون المعلقة نفسها أحد المصادر التي ولّدت الأخبار عن شاعرها، ورسمت للقارئ شخصيةَ امرئ القيس في الذاكرة الشعرية العربية.

2 –Stetkevych, Suzanne Pinckney, The Mantle Odes: Arabic Praise Poems to the Prophet Muḥammad, Bloomington and Indianapolis: Indiana University Press, 2010, 168.

وتعدّ منافسة النص المعارِض للنص الأنموذج شرطًا مهمًا من شروط المعارضة الشِّعريَّة. وإذا أراد الغَزَّاوِيّ أن يجعل المنافسة شعرية فإنه سيجعل قصيدته تفتقر إلى الأصالة؛ لعدم قدرتها على التفوق على الأنموذج الذي تستمد منه القوة والجمال؛ ومن ثم لن تستطيع قصيدته أن تحقق التفوق أو –على أقل تقدير– الهدف الذي أنشئت من أجله قصيدة التَّهنئة. لذا؛ يستبدل الغَزَّاوِيّ بالمنافسة الشِّعريَّة المنافسة السِّياقيَّة الخارجيَّة؛ أيْ أنه يجعل مناسبة القصيدتين، وظروفهما التاريخيَّة والاجتماعيَّة والسياسيَّة مضمارًا للمنافسة، ثم يوظف نسق قصيدته الداخلي، لا سيَّما موضوعات قسم المديح وأسلوبه، لتأكيد تميُّز ممدوحه على مستوى الفضيلة الدِّينيَّة التي لا تتحقق – بحسب معيار القرآن والسُّنَّة– في أخبار امرئ القيس أو في معلقته؛ كتحمل المسؤوليَّة والعفَّة والقدرة على تسخير الذَّات للجماعة.

ومما يدلّ على أن الغَزَّاوِيّ لا يسعى بمعارضته الشِّعريَّة إلى منافسة معلقة امرئ القيس شعريًّا أنه حدد المعيار منذ أوَّل بيت في القصيدة؛ فوضع كتاب الله ببلاغته المعجزة في مقابل معلَّقة امرئ القيس؛ ليضمن إغفالها والحطّ من قيمتها الأدبية، والانتصار للبلاغة الإلهيَّة المعجزة. ويهدف الغَزَّاوِيّ من ذلك إلى ضرورة رفض رسالة الشِّعر بمعيار امرئ القيس الإنسانيّ الجاهليّ، وفي المقابل تأكيد رسالة الشعر بمعيار القرآن الكريم الإلهي؛ بوصفه المقياس الوحيد للأفضلية؛ ومن ثم تأكيد ضرورة اتباع هذا المعيار الذي يقضي بأنَّ الشّعر وسيلة مسخرة لخدمة الدين، وليست مجرَّد وسيلة يعبر بها الشَّاعر عن رغباته ومغامراته الذاتية؛ كما هي الحال في معلقة امرئ القيس. فالغَزَّاوِيّ برفضه لمعيار الشعر الجاهلي –متمثلًا في المعلقة– يشير ضمنًا إلى قول الله تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (٢٢٧)﴾ (الشعراء، آية ٢٢٤–٢٢٧). والغَزَّاوِيّ يعلن ضمنًا منذ بداية قصيدته – مع أنها متصلة بمعلقة

امرئ القيس بوصفها معارضة شعرية- أنها متماشية مع معيار القرآن الكريم، وممثلة لوظيفة الشعر الأخلاقية التي تُعلي من قيمة الفضيلة الدِّينيَّة؛ بوصفها فكرة رئيسة فيها. ثم يؤكد ذلك في قصيدته بتقديم الأنموذج الإنساني الذي يطبق الفضيلة عمليًا في مجتمعه، وهو الممدوح الملك عبد العزيز.

ويوظف الغَزَّاوِيّ معارضته الشِّعريَّة لتأكيد غرضه بالتَّركيز على عناصر متقابلة توضح أثر الفضيلة على مكانة الفرد والمجتمع. ومن أهم المقابلات الرَّئيسة التي يضمنها الغَزَّاوِيّ قصيدة التَّهنئة، والتي يكثّف بها حجم المفارقة بين الملك عبد العزيز وامرئ القيس على مستوى الفضيلة:

أ. المقابلة بين شخصيتي الملِكين من حيث الحياة الجادة والحياة اللاهية، وأثرها في ثبات الملك وتضييعه. فالمقابلة بين امرئ القيس الملك الضلّيل الذي ضيّع مُلْكه، ولم يتمكن من استرجاعه، وبين الملك عبد العزيز الذي وحّد مناطق وقبائل يصعب توحيدها في عصر مليء بالعناصر الهدامة، فأصبحت مملكته مثالًا على الرخاء والاستقرار. وامرؤ القيس يعد أنموذجًا على الانغماس في الذاتية، والانشغال بالحياة اللَّاهية قبل الملْك، ومثالًا للمَلِك المخذول الذي مات وحيدًا دون ملكه بلا حليف. وفي المقابل فإن الملك عبد العزيز يعدّ أنموذجًا للحياة الجادَّة؛ إذ استطاع أن يصل إلى الملْك صغيرًا، ويعززه طيلة حياته، فلم يمت إلَّا بعد أن وطد ملكه، وورّث أبناءه ملْكًا واسعًا عزيزًا رخاءً.

ب. المقابلة بين التَّحوُّل الزماني والمكاني؛ فالقصيدتان تعدَّان شاهدتين على هذا التَّحوُّل المتناقض لحياة الملِكين. والمعلَّقة قصيدة ذاتية تسيطر عليها حال الحزن الفردية، والحنين إلى الماضي التي تفرض على شاعرها الرجوع إلى الذكريات التي تمثل الأحداث السعيدة المترفة اللَّاهية التي عاشها آمنًا في الزمن الماضي؛ رغبة في التَّصبُّر على الأحداث المؤلمة في الزمن الحالي المتمثلة في تدهور الملْك والسعي طلبًا للثأر. وفي المقابل فإنَّ حوليّة التَّهنئة هي قصيدة مجتمعيَّة تسيطر عليها -وقت إنشاد القصيدة- حال البهجة بسبب التحول الإيجابي للمجتمع. ويدمج الغَزَّاوِيّ

ذكريات الأحداث التي ولّدتْ عدم الاستقرار في المجتمع بجهود الممدوح الإحيائية؛ رغبة في تأكيد قيمة هذا التحول في الزمن الحالي، لا سيما في وقت عيد الأضحى أمام وفود المسلمين؛ ومن ثم رغبة في تأكيد استحقاق الممدوح التَّهنئة من قبل المجتمع كافة على لسان شاعر القصيدة.

ويحتفي امرؤ القيس بالأماكن في معلَّقته، فلا يكاد يخلو مقطعًا منها، بل يحددها بدقة عالية. ومع أنَّها قد أصبحت أطلالًا مدمّرة، أو أماكن خالية غير مأهولة، أو مجرَّد ذكريات، فإنها تمثل له قيمة عليا تستحق الاستحضار؛ لارتباطها بالحدث في زمن الاستقرار الذي يسعى لإرجاعه باسترجاع ملكه الضَّائع. والغَزَّاوِيّ يحتفي بالمكان كذلك، ويظهر احتفاؤه به بتكراره لقصيدة التَّهنئة موسميًّا في المشاعر المقدَّسة التي أصبحت ترتبط سنويًّا بقيمة الاستقرار والأمن بعد أن كانت ترتبط في الماضي بالخوف والمخاطر بسبب الاعتداءات على الحجيج قبل عهد الممدوح.

وكلا الشَّاعرين يذكر أحداثًا في الزَّمن الماضي، ويكررها لتصوير محدد لطبيعة الحياة في وقت سابق؛ لتأكيد البون الشَّاسع بينه وبين وقت إنشاد القصيدة. فبينما يكرر امرؤ القيس الأحداث الماضية؛ ليؤكد الفرق بين الحياة المستقرَّة الآمنة التي عاشها قديمًا والحياة المؤلمة التي يعيشها وقت إنشاد القصيدة، يكرر الغَزَّاوِيّ الأحداث الماضية ليؤكد الفرق بين حياة الانحلال التي عاشها المجتمع قديمًا، وحياة الاستقرار والأمن والرخاء التي يعيشها المجتمع في عهد الملك عبد العزيز.

ويتميز شعر امرئ القيس، لا سيَّما المعلَّقة، بالسَّيرورة في التُّراث الشعريّ العربيّ منذ العصر الجاهليّ وحتّى وقتنا الحالي. ويحاول الغَزَّاوِيّ أن ينافس هذه السَّيرورة ذات التَّأثير الأدبيّ بأن يجعل لقصيدة التَّهنئة سيرورة ذات تأثير اجتماعيّ وسياسي بتكرارها الموسميّ في أيام عيد الأضحى في المشاعر المقدَّسة أمام وفود المسلمين؛ لتأكيد مكانة الملك عبد العزيز وأولياء عهده من بعده، وأثرهم في استمرار أمن المجتمع واستقراره،

لا سيَّما استقرار أداء فريضة الحجّ؛ بوصفها دليل على استقرار أداء الفريضة التي يهتم بها العالم الإسلاميّ كافَّة.

وبناء على ما سبق؛ تكمن أهمية المعارضة الشِّعريَّة في توظيف الشاعر لها لتأكيد الفضيلة الدِّينيَّة؛ بوصفها معيارًا رئيسًا في تحديد مكانة الفرد في المجتمع. وعليه؛ فإنَّ المعارضة الشِّعريَّة تعدّ شكلًا من أشكال التَّكرار؛ بوصفه وسيلة من وسائل التَّواصُل الإقناعيّ التي يستخدمها الغَزَّاوِيّ؛ ليؤكّد رسالته بلغة سهلة وواضحة ومباشرة.

- **التَّواصُل الإقناعيّ ونظريَّة النَّمط الموسميّ:**

قراءة السِّياقات الخارجيَّة لقصائد التَّهنئة بعيد الأضحى، لا سيَّما مناسبتها، في ضوء نظريَّة النَّمط الموسميّ يوضح أهميتها؛ بوصفها قصائد تتكرر مع نهاية كلّ عام، وقبيل بداية العام الجديد؛ لتأكيد تحول المجتمع الإيجابيّ إلى حال الاستقرار، وتأكيد استمرارها سنويًّا بسبب وجود الممدوح واستمرار حكمه وحكم أولياء عهده من بعده.

وبحسب ثيودر غاستر Theodor Gaster فإنَّ (النَّمط الموسميّ) (Seasonal Pattern) يشتمل على التفريغ (Emptying) الذي يعبر عن ذهاب الحيويَّة في نهاية كلّ دورة حياتيَّة، والملء (Filling) الذي يعبر –في المقابل– عن الإحياء في بداية كل دورة حياتية. ويتضمن التفريغ طقوس الإماتة والتطهير، بينما يتضمن الملء طقوس الإحياء والابتهاج. ويفضي كل طقس من هذه الطقوس إلى الآخر؛ فشعائر الإماتة ترمز إلى حال الحيوية المعلّقَة بسبب اقتراب العام من نهايته وعدم معرفة ما يحمله العام المقبل من خيرات. ثم تأتي بعدها شعائر التطهير التي يحاول فيها المجتمع أن يخلّص نفسه من كلّ ما يؤذي ويهدد حيوية العام الجديد ورخائه. وبعدها تأتي شعائر الإحياء التي يحاول فيها المجتمع فيها جاهدًا أن يبعث الحيوية مرة أخرى في حاله التي تحتضر، وأن يؤمّن دورة الحياة الجديدة الضَّرورية لاستمرار الكون واستقراره. ثمَّ تأتي شعائر الابتهاج التي يحسّ فيها المجتمع بالراحة

والطُّمأنينة بسبب البداية المستقرَّة لدورة الحياة في السّنة الجديدة التي أصبحت مضمونة للمجتمع وللكون كلّه.(١)

وتفترض الدِّراسة وجود علاقة بين قصائد الغَزَّاوِيّ في تهنئة الممدوح ونظرية النَّمط الموسميّ (Seasonal Pattern)؛ لارتباطهما بفكرة التحول الإيجابي للمجتمع نتيجة جهود أفراده، وتأكيد هذا التَّحوُّل مع بداية كلّ عام. ويظهر هذا الارتباط بشكل أوضح بين شعائر الابتهاج في النَّمط الموسميّ التي تشير إلى إحساس المجتمع بالارتياح بعد أن يبدأ العام الجديد فعليًا فتصبح الحياة المستقرة مضمونة للمجتمع، والفرح بعيد الأضحى؛ بوصفه علامةً على تحول المجتمع إلى حال الأمن، وتأكيدًا لاستقراره قبيل بداية السّنة الجديدة. وبناء على ذلك؛ فإن ربط نظرية النَّمط الموسميّ بقصيدة التَّهنئة يشير إلى دور الممدوح، لا سيَّما فضيلته الدِّينيَّة، في تحويل المجتمع من حال الانحلال إلى حال الابتهاج، ومن ثم يؤكد مكانة الممدوح العُليا في المجتمع نتيجة لدوره المؤثر في هذا التَّحوُّل الإيجابيّ.

وبناء على ما سبق؛ يمكن للدِّراسة أن تربط بين قسم المديح – بموضوعاته المختلفة– وعناصر النَّمط الموسميّ حسب صياغة غاستر Gaster. ويتضح هذا الارتباط في علاقة المقاطع (٢، و٣، و٤، و٥) من قسم المديح بشعائر الإماتة والتطهير والإحياء؛ فكلّ مقطع شعريّ منها يدل على الشَّعائر الثَّلاثة جميعها؛ لارتباط أبياتها بالأوضاع الاجتماعية والسياسية التي شهدها المجتمع في دورتيْ حياته قبل مجيء الملك عبد العزيز للحكم وبعده، لا سيما على مستوى انتشار الفضيلة الدِّينيَّة في المجتمع وتأثيرها الإيجابي في تحوله. بالإضافة إلى علاقة المقطع (٦) من قسم المديح بشعائر الابتهاج؛ لارتباط أبياته بفرحة عيد الأضحى وتهنئة الممدوح؛ لدوره في تأمين الاستقرار لأفراد المجتمع كافة مع بداية السنة الجديدة.

1 – Gaster, Theodor, Thespis: Ritual, Myth, and Drama in the Ancient Middle East, New York: Norton and Co., 1977, 23-26.

يشير الشاعر في المقطع الثاني (الأبيات ٨-١٣) إلى حال التدهور والانحلال العامة التي سيطرت على المجتمع. وفي المقطع الثَّالث (الأبيات ١٤-٢٠) يشير إلى انحلال المجتمع العقائدي؛ لبعده عن التَّوحيد ولانتشار الشِّركيَّات والبدع التي كانت تُمارس في المجتمع؛ كعبادة الأصنام، والتَّوسُّل غير المشروع إلى غير الله، والطَّواف بالقبور. كما يشير في المقطع الرابع (الأبيات ٢١-٣٠) إلى انحلال المجتمع الاجتماعيّ والسّياسيّ الذي يظهر في الاعتداءات التي كانت تحصل بين القبائل بسبب ضياع القوانين التي تحفظ الحقوق، بالإضافة إلى مظاهر العصيان والتمرد التي تعرّض لها الملك عبد العزيز في مسيرته نحو توحيد الدولة. وفي المقطع الخامس (الأبيات ٣١-٤٣) يشير الشاعر بشكل أوضح إلى انحلال المجتمع الديني والسياسي والاجتماعي الذي أدَّى إلى صعوبة أداء فريضة الحج بسبب تعرض الحجاج للحرابة في طريقهم للحج؛ فقد كان قطاع الطُّرق يتعرضون للحجاج بالترويع والسَّرقة والقتل، وقد أدى ذلك إلى ظهور بيئة غير مستقرة يسودها الخوف والخطر.

وهذا الانحلال المتراكم الذي تمثّل في انتشار العقيدة الفاسدة والفوضى السِّياسيَّة والاعتداءات القبليَّة والعصيان والحرابة، والذي أدى إلى سيطرة الخوف والخطر على المجتمع يرمز -بحسب مصطلحات النَّمط الموسميّ- إلى (التفريغ)؛ أيْ أفول الحيوية من المجتمع التي تؤذن بنهاية دورة حياة بعيدة عن الفضيلة الدِّينيَّة، والتهديد بعدم الحصول على فرص جديدة للحياة المستقرة. ويشير الغَزَّاوِيّ، أيضًا، في المقاطع الأربعة السابقة إلى التَّحوُّل الإيجابيّ في حياة المجتمع بسبب جهود الملك عبد العزيز في القضاء على أنواع الانحلال كافَّة، وإعادة بناء المجتمع على مفهوم الفضيلة الدِّينيَّة. وجهود الملك عبد العزيز تعبر -بحسب النمط الموسمي- عن شعائر التطهير والإحياء معًا؛ لأنَّها تؤدِّي إلى تخليص المجتمع من كلّ ضرر حسّيّ ومعنويّ يمنعه من الإحياء ويحرمه من الازدهار، كما تؤدّي جهوده أيضًا

إلى حثّ المجتمع على التضافر لإحياء حاله المحتضرة، وبعثها، وتأمين فرص حياة جديدة مستقرة يسودها العدل والأمن والرخاء.

والمقطع السَّادس (الأبيات ٤٤-٦٠) يعبر -بحسب صياغة النَّمط الموسميّ- عن شعائر الابتهاج؛ لأنَّ الشَّاعر يؤكد، لا سيَّما الجمل الدعائية، ارتياح المسلمين كافة بنعمة الأمن، لا سيَّما بإتمام الحجّ وبالاحتفال بعيد الأضحى، التي تدلُّ على استقرار المجتمع وابتهاجه تفاؤلًا بالسنة الجديدة. ويحرص الشَّاعر على طمأنة المجتمع باستمرار بهجة العيد، واستقرار المجتمع وأمنه بالدعاء للممدوح بالبقاء؛ لأنَّه المتسبِّب في هذه الحال المتجدِّدة والمستمرَّة. ويشير الشَّاعر في البيتين ٥٠ و٥١ إلى ذرية الممدوح، لا سيما وليّيْ العهد؛ ليؤكد البشارة المتكررة موسميًا بالتَّجدُّد الدَّائم للحياة المستقرَّة في ظل حكم ذرية الممدوح من بعده.

ويستخدم الشاعر المعجم اللفظي الذي يناسب شعائر (النَّمط الموسميّ) في مقاطع المديح، فيُكثر من الألفاظ التي تدل على (شعائر الإماتة)، ومنها قوله: "زمان تحلَّل- أحلاك الضَّلالة - مجهل - بلاء ومحنة - حيلة خرساء - الجهل - فِتنة - رسم دارس - النَّاس حَيرى - فيافي التذلل - انصِداع - تقَلقَل - التَّهوّل - تزلزَل - حِمام معجل - حتْفه - يقاسي - المصائب". كما يستخدم الألفاظ التي تدل على (شعائر التطهير)، ومنها: الأبيات (١٠، و١١، و١٢، و١٣)، بالإضافة إلى قوله: "أحاط بها بمعول - قام إلى التوحيد يدعو لربه - يزجي الجيوش - جشمته كل صعب ومشكل - التارك الآساد....تخافت - أقام عمود الدين". كما يستخدم الجمل التي تدل على (شعائر الإحياء)، ومنها الأبيات: (٨، و١٩ و٢٠)، بالإضافة إلى قوله: "منارة شرع - أكبر مبذل - يشكر الله نعمة - الفضل - منة - الحباء المكمّل - أمنًا وعدلًا". كما يستخدم الشَّاعر الألفاظ التي تدل على (شعائر الابتهاج)، لا سيَّما جمل الدُّعاء للممدوح التي تعلن الفرح بنعمة الاستقرار بسبب جهوده في تطهير المجتمع وإحيائه، ومنها: الأبيات (٤٨، و٥٤، و٥٥، و٥٦). بالإضافة إلى الجمل التالية: "تبقى لهم خير موئل - فلا زلت

مشكورًا عزيزًا موفقًا – ولا برحت أعلامك....مظفرة – يرعاك رب العرش بالحفظ – خولك الله القبول مع الرضا وقرة عين – وصان لك الأبناء طُرًّا – جازاكَ عنَّا بالذي هو أهله من الخير".

ويتضافر سياق قصائد التَّهنئة الخارجي ونسقها الداخلي؛ لإثبات مكانة الممدوح العليا على مستوى العالم الإسلاميّ بسبب فضائله الدِّينيَّة، لا سيما فضيلة العمل للدين خدمة للإسلام والمسلمين؛ ليصبح مستحقًا لتهنئة المسلمين بالعيد الذي يتوحد مع الممدوح في مفهوم الابتهاج؛ لأنَّ كليهما –بحسب أبيات القصيدة– يتحوَّل إلى أيقونة تدلّ على تأكيد استعادة الاستقرار واستمراره. وعليه؛ فإنَّ تأكيد مكانة الممدوح تستلزم الارتباط بمناسبة دينيَّة موسمية؛ لتضفي الشَّرعيَّة على حكمه، ولتؤكد مكانته العُليا عالميًّا.

وعلى مستوى نظرية النَّمط الموسمي تمثل معلَّقة امرئ القيس في مجملها شعائر التفريغ؛ لأنَّها مبنيَّة على حال أفول الحياة؛ فتبدأ من نقطة الحزن والبكاء التي يعيشها الشَّاعر وقت إنشاد القصيدة، ثمَّ يرجع إلى ذكريات الماضي الجميل (الأيام الصَّالحة)؛ لتكون عزاءً له وتصبيرًا على حاضره المؤلم. بينما تمثّل حوليَّة التَّهنئة للغزاويِّ في مجملها شعائر الملء؛ لأنها مبنية على حال استعادة الحياة؛ فتعرض دور الممدوح في إحياء المجتمع، ثم تنتقل إلى الاحتفال المبهج في يوم العيد في المشاعر المقدسة أمام الممدوح ووفود المسلمين بعد إتمام نعمة الحج. ويرجع الغَزَّاوِيّ في قصيدته إلى ذكريات الماضي الحزين؛ ليؤكد إنجاز الممدوح الذي يشهده المسلمون في الزَّمن الحالي، وليعزِّز مشاعر الفرح والبهجة بنعمة الأمن والاستقرار والاحتفال الموسميّ الدّينيّ بالعيد.

ومع أنَّ ذكريات الزمن الماضي تتصل بشعائر الملء في قصيدة امرئ القيس إلَّا أنَّها تتمثل في (الملء الذَّاتيّ) حيث الفخر بالذَّات في مشاهد المغامرات الغزلية، ورحلات الصَّيد التي تعد من مراسيم الفخر الذَّاتيّ. وفي المقابل فإنَّ (الملء) في قصيدة الغَزَّاوِيّ يتصل بالزمن الحالي، وهو (ملء اجتماعِيّ) يتمثل في إحياء المجتمع بالفضيلة الدِّينيَّة، وابتهاجه في أيام العيد

بالاستقرار الذي يستوجب التّهنئة الموسميَّة للممدوح؛ لأنَّ وجوده في كل عام بمثابة الوعد بتجدد خيرات الحياة وتكرارها الموسمي بالبهجة سنويًّا.

وبناء على ما سبق؛ فإن نظرية النمط الموسمي تركز على فكرة تحول الحياة من نمط إلى آخر يناقضه، وتحديدًا انتقالها من نمط مشرف على الانهيار والأفول والزوال إلى نمط آخر مشرف على الإحياء والبزوغ والنشاط والقوة. وبناء على ذلك ترتبط نظرية النَّمط الموسميّ بتحوّل المجتمع من حياة الانحلال الدينيّ والاجتماعيّ والسّياسيّ قبل حكم الملك عبد العزيز إلى حياة الامتثال للفضيلة الدِّينيَّة في عهده. وهذا التحول الإيجابي في نمط الحياة يستحق الإشادة بجهود الممدوح وتهنئته بالعيد وبالابتهاج الموسميّ المتكرّر. وتكرار قصائد تهنئة الممدوح بعيد الأضحى يؤكد مكانته بوصفه متوحِّدًا مع العيد في البهجة الحاصلة بسبب الأمن والاستقرار. لذا؛ يصبح تكرار قصائد التَّهنئة بعيد الأضحى وسيلة لإقناع المخاطب بإعادة تأكيد فضيلة الممدوح الدِّينيَّة وأثرها في تحول المجتمع الإيجابي؛ ومن ثم تأكيد شرعية حكم الملك عبد العزيز؛ بوصفه ملكًا مستحقًا للمكانة العليا في المجتمع.

• **خاتمة:**

ومن أهمّ النَّتائج التي توصَّلت إليها الدِّراسة:

١. يتَّضح التَّواصُل الإقناعيّ في قصيدة التَّهنئة؛ بوصفها رسالة واضحة تركز على فضيلة الملك عبد العزيز المتمثلة في العمل لأجل الدين، وتكررها، وتُغرق فيها؛ لأنهّا العامل الرَّئيس لإحياء المجتمع واستقراره؛ ومن ثمَّ لاعتلاء المكانة العُليا فيه، وليس عامل النَّسب أو القوَّة الماديَّة؛ كالمال أو السَّطوة.

٢. تكرار قصيدة التَّهنئة موسميًا في زمان ومكان محدَّدين وأمام مجموعة معينة من المخاطبين يحوّلها من رسالة مؤقتة محدودة إلى رسالة دائمة ذات سيرورة اجتماعية وسياسية.

٣. عيد الأضحى موسم دينيٌّ متكرّر، وتكرار التَّهنئة فيه للحاكم تعدّ محاولة بلاغيّة لتأكيد شرعيَّة الملك؛ بربط حكمه بمناسبة دينية متكرّرة زمنيًّا ومكانيًّا. وعليه؛ تعد التَّهنئة المتكرّرة إعادة تأكيد لشرعيَّة الحاكم، وتجديدًا للبيعة والولاء.

٤. بناء قصيدة التَّهنئة على قسم واحد مناسب لرسالة القصيدة التي تركز على موضوع محدد، وتؤكده لإقناع المخاطب.

٥. توظيف المعارضة الشِّعريَّة يضفي على القصيدة سيرورة، تؤكد أثرها؛ بوصفها رسالة إقناعيَّة، لا سيَّما إذا كان النَّصُّ الأنموذج له سيرورةٌ ومكانة في التُّراث العربيّ الشّعريّ؛ كمعلقّة امرئ القيس.

٦. تستوعب القصيدة التُّراثيّة نظريَّات مختلفة من العلوم الإنسانيَّة، كما أنَّ تطبيق هذه النَّظريَّات؛ كنظريَّة التَّواصُل الاجتماعيّ، والنَّمط الموسميّ، على القصيدة العربيَّة يضيف إليها بُعدًا جديدًا، يسهم في قراءتها بشكل نقدي مختلف؛ ومن ثمَّ في انتشارها.

٧. يمكن تفسير الأغراض الشِّعريَّة التُّراثيَّة؛كالمديح، والفخر، والنسيب –بما فيها من موضوعات داخليَّة، وأساليب– بطريقة متناسبة مع ظروف الشَّاعر المعاصر، والسّياقات الخارجيَّة لقصيدته؛ لا سيَّما إذا استعانت

الدِّراسة بنظريَّات إنسانيَّة، يمكن تطبيقها على المجتمعات البشريَّة المختلفة.

وتوصي الدِّراسة بما يأتي:

١.دراسة قصائد رثاء الملك عبد العزيز، لا سيَّما موضوعاتها الدَّاخليَّة وأسلوبها، وربطها بنظريَّات العلوم الإنسانيَّة؛ كعلم الأنثروبولوجيا، والاجتماع، والاتصال؛ للخروج بتصوُّرات تتجاوز النَّظرة التقليديَّة للنَّصّ الأدبيّ الشِّعريّ.

٢.دراسة القصائد التي تناولت أبعادًا أخرى في شخصية الملك عبد العزيز؛ مثل اهتمامه بقضايا العالم العربي ووحدته، لا سيَّما قصائد الشُّعراء العرب؛ مثل فؤاد حسن الخطيب، وعباس محمود العقاد.

قائمة المصادر والمراجع

١. ابن الأثير، ضياء الدين نصر الله بن محمد، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٥م.

٢. ابن رشيق، الحسن بن رشيق القيرواني. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق وتعليق: محمد محيي الدين عبدالحميد، ط٥، دار الجيل، بيروت، ١٩٨١م.

٣. ابن سنان الخفاجي، عبدالله بن محمد، سرّ الفصاحة، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٢م.

٤. ابن المعتز، عبد الله، كتاب البديع، ط٣، دار المسيرة، بيروت، ١٩٨٢م.

٥. ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، الشعر والشعراء، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، ط١، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢م.

٦. امرؤ القيس، ديوان امرئ القيس، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٤.

٧. أرسلان، شكيب، الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف، تحقيق وتعليق: محمد رشيد رضا، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٤م.

٨. الجبوري، كامل، معجم الشعراء من العصر الجاهلي إلى ٢٠٠٢ م، دار الكتب العلمية، لبنان، ٢٠٠٣م.

٩. رفعت، إبراهيم، مرآة الحرمين، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٥م.

١٠. العطوي، مسعد عيد، أحمد الغزاوي وآثاره الأدبية، ط١، مسعد عيد العطوي، الرياض، ١٩٨٦م.

١١. العسكري، أبو هلال الحسن بن عبدالله، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، تحقيق: على محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٢م.

١٢. الفوزان، إبراهيم بن فوزان، الغزاوي الشاعر، مجلة كلية اللغة العربية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٩٧٩م.
١٣. قدامة، أبو الفرج قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥م.
١٤. القرطاجني، أبو الحسن حازم بن محمد، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، ط٣، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٦م.
١٥. المازني، إبراهيم عبد القادر، رحلة إلى الحجاز، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٢م.

Works Cited

16- Gaster, Theodor, Thespis: Ritual, Myth, and Drama in the Ancient Middle East, New York: Norton and Co., 1977.
17- Le Net, Michel. L'état annonceur: techniques, doctrine, et morale de la commun sociale, Paris: les éditions d'organisation, 1981
18- Noorani, Yaseen, Culture and Hegemony in the Colonial Middle East, Palgrave Macmillan, N.Y, 2010.
19- Stetkevych, Suzanne Pinckney, The Mantle Odes: Arabic Praise Poems to the Prophet Muḥammad, Bloomington and Indianapolis, Indiana University Press, 2010.